



روايات و نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



عمر يظھر في القدس

Omar in Al Quds



Dr. Naguib Al Keilany

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى للناشر

١٤٣٥هـ - ٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/٣٥٠١

الترقيم الدولي:



الصحوه

ALSAHOH

للنشر والتوزيع

٥ محطة فريد - من شارع مجلس

الشعب - السيدة زينب

تليفون: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٨

تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٢٩٣٧٧١٧

daralsahoh@gmail.com

مقدمة
كلمة قصيرة

أخي القارئ...

أعرف أن هذه الرواية قد تثير عديداً من التساؤلات الفنية والفكرية والعقائدية، وذلك لطرافة فكرتها وخروجها على المألوف، لكن الكابوس الذي جثم على روح الأمة، وموجة الألم العارمة التي أرجفت تصوراتها وأحلامها، والحيرة الضاربة التي استبدت بعقول بنيها، قد فجرت ينابيع متباينة المذاق.. ومهدت الطريق أمام رؤى عديدة، بعضها زائف مضطرب، وبعضها أصيل. غنى بالخصوبة والحياة والقوة..

إن هناك قضايا فكرية وعاطفية، وهناك علامات استفهام كثيرة تملأ الرؤوس وتداهمنا في اليقظة والمنام، ولا بد للأقلام

الحرّة أن ترود التجارب العديدة، والحياة تجارب، لتعرض ما
تشاء في جدية وعمق ووضوح . .

ومع ذلك فإن للمضمون أكبر الأثر في اختيار الشكل .
الفنى، بل إن المضمون قد يفرض شكلاً بذاته . . والسلام .

نجيب الكيلانى



الفصل الأول

«قلت لك يا أمى ألف مرة، ليس هناك ما يدعو إلى القلق، الحقيقة أننى أشعر بحزن ثقيل ينوء به قلبى، وبمرارة عارمة تشبع بها روحي، ويتملكنى يأس معاند، لا يفتأ يطالعنى من وقت لآخر، ومع كل هذا لا موجب للقلق يا أماه، لقد أصبحت هذه الأمور كلها بمرور الوقت أمراً طبيعياً فى حياتنا، نحن جيل الضياع والأحزان يا أماه، أيام الذل مزرعة خصبة للآلام والأحزان، وسنوات الهوان الطويلة لم تتفجر عن فجر يبدد الظلام والوجوم، وتماذى العدو فى طغيانه وعبثه وغروره، دون أن نستطيع الشأ منه، يشعرنى بعجز قاتل، ويعصف بالأحلام الخضراء.. هذه أعراض لا بد منها، ولو لم تكن استباحتنا على هذه الصورة، لكننا بالموتى أشبه.. نحن أحياء نرى.. ونستوعب الأحداث، ونفعل بها، وينغصنا الألم فنأرق ونتعذب ونشرد ونحلم كل يوم.. نحن بشريا أماه والذين لا يفعلون بهذه الأحداث هم الشذوذ نفسه..»

وهؤلاء هم الذين يجب أن تقلقى عليهم . . تقولين إن اليأس كفر، ورحمة الله وسعت كل شيء . . إن كلماتك صواب . . لكن هناك نوع من اليأس قد فُرض علينا فرضاً، لا حيلة لنا في رده أبداً، إنه قدر، وهو في الوقت نفسه عقاب . . نحن الذين جدلنا نسيج الهزيمة بعبثنا ولهونا واستهتارنا . . وقد وقع العقاب، أيكن أن تكون المأساة مطهراً نغتسل فيه من الخطايا والعهر القديم؟ أمى . . لا تبشسى، فإن الأحزان القديمة الطويلة سوف يتداعى بناؤها العتيق، ويخرج من قلب الغبار والدخان والركام عملاق يحمل بين كفيه فجر الخلاص . . « . . وسكت . .

كانت أمى تنظر إلى بوجهها الشاحب الحزين، والدموع تترقق في عينيها، ولعلها كانت تظن أنى أصبت بنوع خبيث من الجنون، وأغرب أنواع الجنون ينبع من هذيان نسيمه حكمة ومنطقاً قوياً، وتفسيراً جذاباً للأحداث الجسام التي يريج لها كياننا . . ولم تزد أمى على أن نصحتنى بأن أقلل من السهر، وأبتعد بعض الوقت عن إطالة النظر في الكتب، وأن أبحث لى عن عمل أدفن فيه مرارتى وأحزاني . . وقبل أن أنصرف عنها قالت: «لست أدري إلى متى تظل بلا زواج؟!» وربما كات تعتقد أن ارتباطى بزوجته، وإنجابى لعدد من

الأطفال قد يقدم بديلاً جديداً لاهتماماتي الروحية والفكرية،
أو ربما كانت قلقة من أجل مستقبل ابنة أختها التي كان هناك
شبه اتفاق غير مكتوب على أنني لها وهي لى، أو لعلها كانت
تريد بديلاً لأختي وأبى اللذين استشهدا في معركة القدس في
يوم من أيام حزيران السوداء. . . وقلت لها في توتر: «أمى لا
طعم للأعراس، وأعلام العدو تخفق في سماء المدينة
المقدسة. . .».

ووليت هارباً قاصداً خارج المدينة، لم أكن أحمل حقيبة،
أو أضع على عيني منظاراً أسود، أو أتلفت يمين ويسرة، كنت
أمضى دون اكتراث، نظراتي الشاردة مصوبة إلى الأمام إلى
بعيد. . . متخذاً من جانب الطريق الأيمن مساراً لى، والمدينة
تعج بأصوات السيارات والطائرات ونداءات الباعة، وفي
مكاني المعهود، حيث الهدوء والعزلة والصمت والآفاق
الرحبة، جلست في ظل شجرة عتيقة، كانت تشدني إلى هذه
الشجرة ألفة وحنين من نوع غريب، جلست مسنداً ظهري
ورأسي على جذعها الضخم الراسخ، وعشرات الأفكار
تصطرع في رأسي المتعب. . . ملامح الأرض لم تتغير، السماء
كالعهد بها، والطيور ترق في الأفق الكبير، والشمس تصب
دفئها وأشعتها، لا تكثر لما جرى ويجرى. . . والعالم موقفه
يدعو إلى الحيرة، يصفق للمعتدين، وينحى باللائمة على

المغلوبين المظلومين، ويتغنى بالحق والعدل والسلام.. أكاد أختنق، وأجفاني تثقل وتثقل، والإرهاق يجعلني عاجزاً عن الحركة.. كل شيء يضطرب في ذهني، لكأني مقيد، ومعلق بين السماء والأرض، لا أستطيع الهبوط أو الصعود، هل توقفت قوانين الطبيعة، أم أني أضرب في عالم آخر غامض غاية الغموض».

وسمعت صوتاً ينادي: «أيها المعلق بين الوجود والعدم.. تعال إلي..».

ولفحت وجهه المحتقن الملهب أنفاس عطرة ندية، أحسست أن يداً سحرية تصب في قلبي وعقلي قطرات من الراحة والسكينة والرضا.. حاولت أن أفتح عيني فتدفق النور. يا إلهي ماذا جرى؟! أخذت أتحسس جسدي، وأفتح عيني ثم أغلقهما.. وأقبض يدي ثم أبسطها.. وأتنفس بقوة.. وشعرت بيد حانية تربت على كتفي في حنان ورفق.. انتفضت.. أسرعت بالوقوف وقد داهمني ذعر شديد، ونظرت خلفي فإذا برجل مديد القامة، مشرق الوجه مشرب بالحمرة، تضيء عليه لحيته البيضاء وقاراً زائداً، وكان أروع ما فيه عيناه الصافيتان الواسعتان اللتان تفضيان صفاء ويقيناً وأماناً: «سلام الله عليك..».

صحتُ في ارتباك: «من أنت؟».

قال والابتسامة تعانق كلماته: «فرض عليك أن ترد السلام على من يقرؤك السلام».

قلت وأنا ألهث: «وعليك السلام، فمن أنت؟».

- «عبد من عبيد الله».

- «لم تجب...».

- «الحقيقة الأولى هي أننا جميعاً عبيد الله».

- «ولكن لكل عبد اسم ورسم».

قال وقد أحنى رأسه حياءً وتواضعاً: «اسمى عمر بن الخطاب...».

صرخت في دهشة: «من؟».

- «ما الذي يزعجك يا ولدي؟».

- «حسبتك خليفة رسول الله...».

- «إنه لكذلك...».

تصدر الكلمات من بين شفثيه قوية رصينة، تفوح منها رائحة الصدق والجلال، بريئة من الشك والريبة، خالصة من كل بهتان، لكن كيف أصدق!

- «الموت سجن رهيب، لم نسمع أن أحداً اخترق أسواره السميكة، أو تسلق هاماتها الشاهقة . .» .

ابتسم في هدوء وقال :

- «الموت جسر إلى الخلود، أتعرف شيئاً عن الله . . والبعث وقدرة الخالق . . وعالم الغيب والشهادة» .

- «أعرف الكثير» .

قال : «تعرف ولا تؤمن، المعرفة شيء والإيمان شيء آخر . . ولا قيمة لمعرفة بدون إيمان، ما دمت قد عرفت فيجب أن تؤمن بالمعرفة اليقينية . . وقدرة الله ليس لها حدود . .» .

طأطأت رأسى في حياء، وقلبي يفيض بالحيرة، وفكرى نهب للشكوك المتضاربة، أعرف أن الله قادر على كل شيء، وأن فى العالم أسراراً لم ترفع عن وجهها الحجب حتى عصرنا هذا، وأن عالم الغيب غاص بالأعاجيب والألغاز والأحاجى، المشكلة أننى لم أر فى حياتى ميئاً ينفض عن هيكله وكفنه غبار السنين، ثم ينهض، وشدنى من حيرته حينما تساءل قائلاً : «ما هذه المدينة؟» .

- «بيت المقدس يا أمير المؤمنين» .

- «أرضنا الموعودة . . جئت من وراء السنين لأرى وأقول . . ليس لى رصيد سوى الكلمة . . يا لجمالها!! لقد

زرتها في حياتي، ووضعت جبهتي على ترابها وأنا أسجد لله.. لترابها عبير لم يزل عالقاً بأنفي.. ولها ذكريات.. وحاولت زيارتها مرة أخرى لكنني لم أستطع.. كان الوباء متفشياً فيها.. وقررت يومها الرجوع.. وقال قائدنا الهمام أبو عبيدة بن الجراح محتجاً: أتفر من قدر الله يا عمر؟! وقلت له: نفر من قدر الله إلى قدر الله.. وكان نبينا ﷺ قد أوصانا بالأن ندخل أرضاً بها وباء، أو نخرج من أرض أصابها الوباء «وهكذا رجعت..».

وانهمرت دموعي وأنا أقول: «يا أمير المؤمنين.. إن بالقدس اليوم وباء خطيراً..» هتف في إشفاق: «الطاعون؟».

- «الطاعون يقضى على عدد من الناس.. لكن الوباء الآن قضى على شعب.. وتاريخ.. وقيم كبرى.. في القدس اليوم الإسرائيليون آفة العصر، حاملو ألوية القذر والحقد والدمار..».

هز الخليفة رأسه، ويبدو أنه أدرك أنني لا أقصد مرضاً من الأمراض المعروف بشدة عدواها وخطرها، وقال: «أريد أن أزورها».

- «مستحيل؟».

- «كيف؟ هل أبوابها مغلقة، أم أن هناك حرباً وحصاراً؟».

نظرت إليه طويلاً ثم قلت: «هل معك هوية؟».

- «هوية؟ ماذا تقصد؟».

- «هوية، بطاقة شخصية... جواز مرور... أى شيء يثبت

شخصيتك...».

- «إننى لا أكاد أفهمك يا ولدى؟».

- «الإسرائيليون يا أمير المؤمنين لن يدعوك تمرّاً!».

- «أهم قطاع طريق أم جيش مهاجم؟».

ارتعيت لدى قدميه أسكب الدموع، كنت أهذى وأقول:

«القدس تحت نير الاحتلال... أخذوا القدس القديمة هي

الأخرى، القدس العربية في نكبة «حزيران»... دورياتهم

تجوب الشوارع، وتقف على نواصى الحارات، وتراقب المارة،

وتفتش السيارات، لا يفلت منهم أحد، حتى النسوة والأطفال

والعجائز، تغيرت الدنيا، وظاهرتهم أمريكا... العار يفرخ في

أرضنا التسعة منذ سنين...».

قرأت الحيرة في عينيه، وعلى وجهه المشرق، وشرح لى أنه

يقف الآن وبينى وبينه أربعة عشر قرناً من الزمان، واعترف في

تواضع أن كثيراً من الكلمات التى قلتها لم يستطع أن يفهم

معناها تمامًا مثلما حدث في القديم عندما دخلوا بلاد فارس والرومان، ووجدوا كثيرًا من التقاليد واللغات والأسماء والمصطلحات التي تختلف اختلافًا كبيرًا عن مثيلاتها في بلاد العرب، وطلب مني أن أشرح له معنى الاحتلال وحزيران وأمريكا والسيارات، وهممت بالحديث، لكن هديرًا صخبًا سد أسماعنا، وبدد السكون، ورأيت الخليفة يرفع عينيه إلى السماء مستغربًا، وتمتم: «السماء تقذف بالشهب والحمم . .».

همست في حزن دون أن يبدو على آية بادرة من بوادر الخوف: «إنها الميراج».

- «ماذا تعنى؟».

- «طائرة . .».

- «إنها تنطلق بسرعة مذهلة، وتسير كأنما يوجهها أحد . . إنها لا تمضي ذاتيًا . . أم تراها مخلوقًا غريبًا ظهر في عصركم؟ ثم ماذا تعنى بكلمة طائرة؟».

قلت خافض الرأس حزينًا: «آلة صنعها الإنسان من حديد ومعادن شتى، تسير بوقود من البترول، تنطلق في الجو عاصفة . . تقذف بالنار والموت والرعب . . لا قلب لها. تسرق النصر، تنفث الذل أو الفناء في صفوف الأعداء. وتمنح المجد،

والسيطرة لأصحابها.. هي الوفاء الأعمى.. تهد الجبال،
وتدمر المنازل، وتشعل الحرائق.. صنعها الإنسان..».

هز رأسه دهشاً: «الله في خلقه شئون».

- «ليست من مخلوقات الله يا أمير المؤمنين..».

ابتسم عمر في يقين وقال: «الإنسان يشكل الحديد ولا
يخلقه، وفرق شاسع بين من يخلق المادة من العدم، ومن
يتحايل بأنامله وتفكيره ويعطى المادة شكلاً أي شكل».

نظرت إليه في إكبار وقد شدتني كلماته البسيطة الصادقة
وقلت: «هذا حق».

ثم شرحت له ما أقصده بكلمة حزيران والنكبة والسيارة
فرد في يقظة: «وأمرىكا؟».

- «أقوى وأغنى دولة في عالم اليوم يا أمير المؤمنين».

- «لكنني كنت في الزمن القديم أعرف شتى أنحاء المعمورة
ولم أسمع بهذا الاسم قط..».

- «يا خليفة رسول الله، لقد كانت مجهولة في عصركم،
كانت تختبئ خلف المحيطات الشاسعة وبحار الظلمات،
معزولة متخلفة، يهنودها الحمر، ثم اكتشفت منذ قرون قليلة،
فهاجر إليها كثير من البشر وسكنوها وعمروها. واليوم أمريكا
سيدة العالم..».

قال: «أهى من أمة الإسلام؟».

- «بل عدوه الأول يا أمير المؤمنين».

تقطب جيين عمر، وطافت مسحة حزن على جبينه المشع، وقال: «وكيف تهابون دولة مهما كان شأنها؟! لقد تركناكم وألوية الحق تخفق فوق العالم المعمور، وكان إيمانكم أقوى من الدنيا، وسيوفكم لا يقهرها باطل..» «كنتم خير أمة أخرجت للناس» ألا تقرأون القرآن؟».

قلت في أسى عميق: «كل شيء تغير، أصبح الرجال غير الرجال.. والمبادئ غير المبادئ، ومال ميزان القوة، وأصبح المسلمون مستعبدين.. وفقد كل شيء إلا الأمل..».

ضرب كفًا بكف، واكفهر وجهه هذه المرة، وقال: «أنتم لا تعرفون الله.. إن تنصروا الله ينصركم قول لا يتبدل.. لأنها كلمات الحق الأعلى.. لم أكن أتصور ما حدث.. أيهزمكم اليهود؟ لو قال قائل في زماننا إن اليهود فتحوا مدينة من مدن الإسلام في أيامي لاستلقى الناس على أقيعتهم من الضحك.. إن في الأمر سرًا لا يبدو للعيان.. عسير على أن أهضم هذه الأمور، لكنكم صانعو المأساة.. ولا شيء غير ذلك..».

ثم التفت إلى العرق الغزير يتقاطر على جبهته ولحيته:

«هيا إلى بيت المقدس».

- «والهوية؟».

- «لا شأن لك بذلك».

- «إنى أخاف عليك».

- «وأنا لا أخاف إلا الله...».

ونظر إلى بعيد، حيث تقبع المدينة الخالدة بمبانيها ومآذنها وقبابها، وأعمدة من الدخان الأسود والأبيض تهرع إلى الأفق، وانحدر مرفوع الرأس صوب الطريق العام وأنا إلى جواره، وأخذ يغذ السير دون أن يبدو عليه إجهاد أو تردد، وعديد من الطائرات يشق الأفق، وعشرات السيارات الصغيرة والكبيرة تمر بسرعة، وهو يتابع تلك الحركة وضجيجها بنظراته المستغربة، وتتم: «يبدو أنه ليس وراء عالمكم سوى صناعة الحديد».

- «أصبح الحديد هو الوسيلة لكل شيء».

- «لا بأس كان السيف من الحديد...».

ثم استطرد بعد برهة: «لكن المسلم كان أقوى من الحديد بإيمانه».



الفصل الثانى

امتد بنا الطريق ، وأنا أشعر بسعادة غريبة ، ألت الرجل الموعود الذى كان له شرف الصحبة مع رجل ذكره يتردد على حقب التاريخ كأعظم ما يكون الرجال ، وأنا أسير إلى جواره لا أكاد أصدق . سألتى صديق ذات يوم عن العصر الذى أتمنى أن أعيش فيه ، وكنت أقول له دائماً إننى أعشق عصر النبوة وما فيه من رجال وصراع ، وهذا عبق من عطر النبوة ، إننى مشفق من المستقبل ، لكننى سعيد برغم الهواجس التى تلعب برأسى .

وعلى يسار الطريق قامت شجرة فارهة تتدفق حيوية ، وتتدلى أغصانها الخضراء حتى تكاد تلامس الأرض ، وإلى جوارها خيمة صغيرة مزركشة تتراقص فيها الألوان المختلفة والستائر الفضية ، وتحت الشجرة جلس فتى وفتاة ، وكانت يد الفتى تطوق عنق جارتها الفاتنة ذات الشعر الذهبى ، ورأسهما متلاصقان ، ويدها فى يده الأخرى ، وكانت نظراتهما تقطر رقة ونشوة ، لا يكادان يشعران بما حولهما ، يهيمنان فى دنيا

حلم رقراق جميل ، وأمامهما زجاجة بها سائل قائم اللون وكأسان ، اتسعت عينا عمر دهشة ، وهتف : « ما هذا الذي يحدث على قارعة الطريق » .

- « طقوس الحب يا أمير المؤمنين . . » .

زمجر مهتاجاً : « لا يصح أن يجلس زوج وزوجة هكذا أمام الناس » .

تحيرت ، ولم أستطع في البداية أن أعلق ، لكنني قلت :
« إنهما صديقان . . هذا إيلي وصديقه . . إنني أعرفهما . . »

هدر : « ماذا تعني ؟ بأي حق ترتكب هذه الدعارة . . » .

- « لا شأن لنا بهما يا أمير المؤمنين » .

- « اصمت يا رجل . . الساكت عن الحق شيطان أخرس ، هذا انحطاط لا مثيل له ، يجب أن يُساقا إلى حيث ينالان الجزاء العادل . . » .

واندفع عمر نحوهما في ثورة ، ثم وجد غصن شجرة جافاً ملقى في الطريق ، فالتقطه وأمسك به في تحد ، وما إن بلغ مجلسهما حتى صاح : « إنكما تمعنان في السفه والفحّة » .

فرطن الفتى بكلمات لم يفهم عمر معناها ، ثم مال إلى فتاته يقبلها عابثاً ساخراً ، وأمسكتُ بذراع الخليفة ، وأخذته

إلى الورا خطوات وقلت: «أيها الخليفة.. لا شأن لك بهما، وليس من اللائق أن تفسد عليهما متعتهما، إن لهما الحرية كل الحرية فيما يفعلان، هذا حقهما، وإن لم تنصرف فلسوف يبلغان عنك الشرطة..».

ضرب عمر كفًا بكف وقال: «في أي مكان نحن؟ أنا لا أكاد أصدق ما يجري، من أحق بالعقاب والمحاكمة، أنا أم هما؟ ألا شك أنهما أصيبا بلوثة من الجنون.. إنهما ينشران السوء والفاحشة..».

عدت إلى الإمساك بيده المرتجفة وقلت ضارعًا: «هما يهوديان، ومن أصحاب الأمر والنهي، وما علينا إلا أن ننصرف وإلا..».

نزع يده في عنف وقال: «يهوديان؟ لم تتغير طبائعهم منذ قديم الزمان، كانوا بالأمس يستترون في بيوت الدعارة والمجون، واليوم ينشرون فسقهم علانية، إذا لم تتركني فسأضربك أنت الآخر..».

حاولت أن أشرح الأمر من جديد، فاليهود يحكمون المدينة، ومعظم النساء في عصرنا سافرات، وفتيات الجليل وفتياته لهم حق التصرف بحرية إلى مدى بعيد، أصبح ذلك أمرًا يكفله القانون، والتصدى لهذا «الحق» يجر إلى عديد من

المتاعب، لكن عمر كان يغلى من الغضب، وصاح صيحة زلزلت الفتى والفتاة، فساد وجهيهما الشحوب والخوف، وانقض عمر عليهما ضرباً بالعصى، مما جعلهما يفران مذعورين ويلجئان إلى «بيارة» قريبة، بعد أن تحطمت الزجاجاة والكأسان، بينما وقف عمر يلهث غاضباً، ويهز العصا في يده، وتتم: «أرى الفساد قد استشرى بصورة مزعجة».

قلت: «طريق العودة إلى الله تسده صخور هائلة من الفساد».

- «المؤمن الحق لا يعرف المستحيل، تخر الجبال لتقواه صاغرة...».

ثم التفت إلى الزجاج المحطم والسائل المراق وقال: «ما هذا؟».

- «خمر...».

عض على شفته في ذهول: «دعارة... وخمر... في ضوء النهار، ولا يخافان إقامة الحد عليهما؟!».

قلت: «لك الله يا عمر!! لقد أبطلت الحدود، والخمر تباع في كل مكان، الحكام يشربونها في الحفلات العامة، وفي بيوتهم، يتساقونها علانية، وكأنهم يتساقون أقداحاً من القهوة... وبيوت الدعارة تأخذ تراخيص من الحكومة،

ويحميها القانون . لقد أصبح للفساد قوانين تنظمه وترعاه . . . » .

وابتلعت ريقى ثم استطردت : « ليس هنا فحسب ، بل في أغلب أنحاء الدنيا . . . » .

التفت إلى قائلاً : « هل أنتم مسلمون حقاً ؟ ! » .

- « أجل . . . » .

- « وما دليلك ؟ » .

- « ما زلت أقول الشهادتين . . لكن . . . » .

- « لكن ماذا ؟ » .

- « اليهود يحكمون . . ورئيسة وزرائهم امرأة يقال لها جولدا مائير . . . » .

قال عمر وهو يلوح بيده : « وأين خليفة المسلمين في المدينة ؟ وأين ولاتنا في الجزيرة العربية والعراق وفارس ومصر ؟ أين ألوف الألوف من حملة الرايات والمصاحف يا جيل الهوان والسخریات والعبث ؟ ! » .

حاولت تهدئة خاطره ، كنت أرى أن يعتصم بالهدوء في مواجهة واقع أليم يفيض بالتحديات والانحرافات ، ولم يكن هناك من وسيلة سوى أن أوضح له الحقائق في كلمات

سريعة . . حاولت إعطاءه صورة لما حدث في عصرنا للمسلمين، كيف ضعفوا واستخذوا، وكيف داهمتهم أوربا بعلمها وخبثها وأحدث آلات الدمار التي استحدثتها، فاحتلت بلادهم سنين طويلة، وكيف نفثت سمومها في فكرهم ودينهم وتراثهم، فأثارت في صفوفهم البلبلة والاضطراب، وملأت حياتهم بالشكوك والأكاذيب، ثم كيف تيقظ المسلمون، وحاولوا استرداد حرياتهم وبلادهم، وشرح له ما جرى للخلافة من وهن ذاتي، وكيف تأزرت قوى الشياطين للقضاء عليها، ثم القيم الجديدة التي تحكم عصرنا، وكيف تحول المسلمون إلى مجرد مدافعين عما تبقى لهم من شيء قليل، وكيف انقسم الحشد الواحد إلى قويعات صغيرة معزولة، تجتر كل واحدة أساها، وتنعى حظها، ولم يزد عمر على أن قال والدموع في عينيه: «عادت الجاهلية كأعنف وأخبث ما يمكن . . .».

أخذت أهرز رأسي وأقول: «نحن في حاجة إلى نبي جديد».

صاح محتدًا: «اصمت وإلا قطعت لسانك . . كلماتك تنضح بالكفر والغباء . . ألا تعلم أن رسول الله خاتم النبيين، وأنه لا شيء غير القرآن . . تلك دعاة فكر لا تقل غرابة عما رأيته اليوم بين الفتى والفتاة! تبدلون الكلمات بسخاء أبله .

نبي جديد . . يا للمهزلة لما تقول !! الكلمة الأخيرة كانت
وستظل تتردد في أرجاء الدنيا، برغم ما تعانون من خيبة
وفشل . لست أول جيل يجيء، ولا آخر جيل . . الآن عرفت
سبب انتصار اليهود عليكم، ونشرهم الفجور بين ظهرانيكم،
الخوف يلد الرذيلة . . والهزيمة تمسخ ضعفاء الإيمان . . أنتم
جوعاء برغم رصيدكم الضخم من الزاد . . تدقون الأبواب
الصلدة في بله، ولو بحثتم عن المفاتيح لتفتح أمامكم باب
النعيم الأبدي . . »

« كالعيس في البیداء یقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول »

اسمع يا فتى . . إن من يتعود التقاط الفتات من موائد
الأغنياء، تسحره كلماتهم وفكرهم وسلوكهم، ويحاول أن
يقلدهم، وفي التقليد الأعمى فناء العقل والروح . هكذا
يتحول السادة إلى عبيد . . وإذا أردت أن تعرف كيف يصبح
العبيد سادة فتذكر قصة أخى بلال بن رباح . . لقد سخر من
نتن الفكر لدى أساطين الكفر في مكة . . ضربه . . عذبه . .
لكنه لم ينحن ليلتقط الفتات . . أتفهمني ؟ »

قلت مطأطئ الرأس : « أجل . . »

فقال : « فلنمض في طريقنا . . »

وأمسك بيدي، وسرنا صوب المدينة، كان يرتجف غضباً ودهشة، ويحث الخطى مسرعاً، وسيما الحق والتوتر تصبغ حركاته، وترتسم على ملامح وجهه، وعند مدخل المدينة كانت توجد نقطة حراسة إسرائيلية، وقدم نحونا جندي يحمل مدفعاً رشاشاً وقال بلكنة عربية عرجاء: «الهوية».

أبرزت هويتي فتصفحها بدقة، ثم ركز نظراته على وجهي بعض الوقت، وهز رأسه، ثم قذف بها إلى في استهتار وتحد، وبعد ذلك اتجه صوب أمير المؤمنين، وأنا أرتجف من الخوف ماذا سيفعل؟ وكيف سيواجه عمر هذا الموقف الشائك؟ وتصورت القصة التي تحدث دائماً، لسوف يسوقونه إلى مقر رجال الأمن لعمل التحريات اللازمة، وربما يلقون به في معتقل من المعتقلات الكثيرة، أو يحكمون عليه بالسجن لبضعة شهور، لماذا لم أتدبر الأمر كما يجب؟ ألم يكن باستطاعتي أن أزيغ له هوية؟ وكيف أقف مكتوف الأيدي أمام هذا المشهد: جندي أرعن يتعرض لخليفة رسول الله ﷺ أعدل من حكم الأمة، وأقوى من ساس الأمر بعد الرسول، وقاهر الفرس والروم، وباعث نور الرسالة الإلهية في المشرق والمغرب، أية مهزلة توشك أن تحدث؟

- «وانت.. أين هويتك؟».

- «بلا هوية.. أنا معروف.. لا بد أن أمر..».

قالها عمر، وهو يرصد الجندى بنظرات قاهرة لا تقاوم . .
تراجع الجندى بضع خطوات للوراء، ودارت بى الأرض،
لسوف ينطلق المدفع الرشاش، ويحيل الخليفة إلى أشلاء ودمار
فى لحظات، وآلات العصر الجهنمية يا أمير المؤمنين لا تفرق بين
الأطهار والأشرار، ولا تميز المؤمنين من الكافرين . . إنه عصر
الملحدين والرافضين . . فلأنقض على الجندى كى أمنعه من
ارتكاب الإثم الأكبر . . وفتحت عينى لأرى عمر يمضى فى
طريقه مرفوع الرأس، والجندى يعود إلى خيمته دون اعتراض،
لماذا مضت الأمور على هذا النسق الغريب؟ لا أدرى . .

ولم نكد نبتعد بضع خطوات، حتى سمعت نداء وصياحاً
خلفنا، فالتفتُ فإذا بسيارة، وبها عدد قليل من رجال الشرطة
وبها «إيلى» وفتاته، العاشقان اللذان كانا يتساقيان كثوس
الهوى تحت الشجرة .

وقالت الفتاة وهى تشير بسبابتها المخضوبة صوب عمر:
«إنه هو . . هذا الشيخ الرجعى وأمثاله لا يعرفون أصول اللياقة
والأدب . .» .

اندفع عمر نحوها بعصاه وهو يزجر: «أيتها الملعونة . .
أتجرئين على الظهور أمامى مرة ثانية؟! لو أن بالمدينة رجالاً
حقيقيين لجلدوك أنت وذلك العريد لتكونى عبرة لغيرك . .» .

انحنى الشرطى أمام عمر فى ابتسامة مأكرة وقال : «معذرة أيها الشيخ الجليل . . يجب أن تصحبنا إلى مركز الشرطة» .
أشار عمر بإبهامه على صدره قائلاً : «أنا؟!» .
- «أجل . .» .

هز عمر رأسه قائلاً : «فهمت . . تطلبونى للشهادة . . يبدو أن بكم بقية من نخوة . .» .

ضحك الشرطى حتى كاد يستلقى على ظهره ، ثم اتخذ سمت الجلد والتحدى وقال : «نحن أساتذة العالم . . ولم نعد بحاجة إلى عربى يعلمنا السلوك والآداب . . أنت متهم بالتدخل فى شئون الآخرين ، ومتهم بالاعتداء بالضرب على فتى وفتاة بريئين . .» .

قال عمر فى دهشة : «بريئين؟! أنا متهم؟! أنت تخلط» .

ووضعت الفتاة ذراعيها حول عنق فتاها وقالت وهى مستغرقة فى الضحك : «إيلى يا حبيبى . . إن هذا الرجل ظريف للغاية . . لكأنه من أهل الكهف . . إنه تحفة نادرة . .» .

امتدت يد عمر إلى عنقها ، وجذبها فى عنف وهو يقول : «لا يمكن أن أرضى بهذا التحدى للآداب والشرائع . الصمت فى مثل هذا الموقف جريمة ، ولو كان حولك ألف ألف شرطى . .» .

وحاول ثلاثة من رجال الشرطة تخليص الفتاة منه دون جدوى، فأخرج إيلي مسدسه نحو عمر قائلاً: «إذا لم تتركها فسوف أفرغ الرصاصات في رأسك».

واندفعتُ إلى عمر كالمجنون وقلت ضارِعاً: «اتركها بالله وإلا حدثت كارثة...».

وفي لمح البصر ضرب عمر المسدس من إيلي فانقذف إلى بعيد، وهربت الفتاة إلى إيلي المرتبك الحائق وأخذت تقول: «لقد كاد يقتلني يا إيلي. إن في يده قوة مهولة...».

ثم أخذت تضحك وتنقل نظراتها بين وجه إيلي الحائق ومسدسه الملقى بعيداً، وقالت: «يستطيع هذا الرجل أن يسحق ثلاثة مثلك في لحظات...».

ثم عادت إلى عمر تتحسس ذراعيه ويديه وتقول: «أنت كهل مثير للغاية... إنني أدعوك للعشاء معي...».

ركلها عمر في عنف وقال: «خذوا هذه الكلبة عني...».

وعلى الرغم من أنها ارتمت على الأرض، إلا أنها كانت تبتسم في دهشة غريبة، وتمتم إيلي في غيظ، وقد رأى ثيابها منحسرة، ونظراتها الولهي مركزة على الشيخ: «ما هذا الذي تفعلين يا راشيل؟!».

قالت وهي تهم بالنهوض ، ثم تنفض التراب عن ثيابها :
« لكنني أحببته يا إيلى . . أعنى أنني معجبة به . . أو ليس لى
الحرية فى أن أعبر عن حقيقة شعورى ؟ » .

- « لا مجال للهذر والعبث فى هذا المجال . . » .

لم تعره التفاتاً ، وواجهت ضباط الشرطة قائلة : « لقد
تنازلت عن حقى ، وسحبت الشكوى » .

ثم توجهت إلى « إيلى » بنظراتها قائلة : « وإيلى هو الآخر
معى فى ذلك . . » .

فأخرج الضابط ورقة من جيبه ، وطلب منهما التوقيع . .
وقلت لعمر - وأنا فى قمة السعادة - : « نستطيع الآن أن
نصرف بحمد الله . . » .

كان عمر لا يستطيع فهم اللغة التى يتحدثون بها ، وتمتم :
« ماذا جرى ؟ ! » .

- « لقد نجانا الله . . » .

- « وهذان ؟ ! ألا يتالان جزاءهما ؟ ! » .

- « يا أمير المؤمنين . . » .

- « لن أغادر المكان قبل أن . . » .

لكنه توقف عن الكلام حينما رأى سيارة الشرطة تنطلق

مسرعة، ومن خلفها الدراجة البخارية التي يركبها «إيلي»
و«راشيل» ومن خلفها زوبعة من الغبار الخفيف.

وتتم عمر: «لقد هربا . .».

وقلت: «لقد نجونا . .».

لكزنى عمر في ضيق قائلاً: تصرفاتك لا تليق بمسلم . .
أنت شديد الخوف، ثم تنهد ونظر إلى السماء، كانت الشمس
تتوسطها، والجو شديد الحرارة، وقال عمر في عجلة: «لقد
حان وقت الصلاة . . اليوم يوم الجمعة . . هيا إلى أقرب مسجد
لنؤدى الفريضة . . أم أنكم ممنوعون من تأدية شعائر الله في
المساجد؟!».



الفصل الثالث

وقصدنا الميضاة، وعمر يتمتم بالدعوات والآيات . .
ووقف خلف أحد المتوضئين حتى جاء دوره، وأبدى إعجابه
بالنظافة والماء الوفير، وشرب جرعات منه، ولم يخف رضاه
عن مذاقه المستساغ، لكنه انتقد بشدة ذلك التبذير الواضح في
استعمال الماء، وفرح أيما فرح بتقاطر المصلين أفواجا لتأدية
الفريضة، وهمس: صدق رسول الله: «الخير فيّ وفي أمّتي
إلى يوم القيامة»، ولاحظ عمر أن الوجوه يكسوها العبوس
والصمت، ويوشحها الذهول والقلق، وعندما جلس في ركن
من أركان المسجد الواسع، وتحسس السجاد الفاخر، ونظر إلى
الثريات الكبيرة، واللمبات الكهربائية الضخمة، بدا له أن
ذلك نوع من البذخ لا مبرر له، خاصة في وقت حرب كهذا
الوقت، وتعجب للمنبر العالي المنمق الذي يعبر عن فن دقيق
جميل، وظهر الضيق على وجهه حينما رأى الكثيرين من
المصلين يتخطون الصفوف كي يجلسوا في المقدمة، فلم يتوانَ

عن الوقوف ، وأخذ يعلمهم أن تخطى الرقاب في المساجد أمر غير مستساغ ومنهى عنه ، وأوصى كل مصل بأن يجلس حيث انتهى به مكانه من الصف الأخير ، ودهش إذ رأى البعض لا يكثرث لكلماته ويصر على تخطى الرقاب ، وتمتم : «أست على حق؟! فلماذا لا ينصاعون لكلماتي؟!» وسمع عمر صوتاً قوياً ندياً رقراقاً يردد سورة الكهف ، وأخذ يتطلع هنا وهناك باحثاً عن صاحب الصوت وهو يقول : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ... ﴾ [الكهف : ١] وأشارت أنا إلى منصة صغيرة قرب المنبر ، ثم أشارت إلى مكبرات الصوت التي تزيد القراءة رنيناً وقوة ووضوحاً .

وبكى عمر تأثراً بما سمع من الآيات ، وكان تأثره ممزوجاً بسعادة كبرى ، فهو يسمع القرآن دون تحريف أو تبديل ، كما نزل على سيد الأنام محمد بن عبد الله ، وقال لى فيما بعد : خفت أن يمتد شططكم وغروركم إلى كلمات الله فتعبدون بها ، وتغيرون وتبدلون كما فعل بنو إسرائيل بالتوراة ، وكما فعل النصارى فى الإنجيل . .

كان عمر متشياً بما يسمع من آيات ، لكنه سمع ضجة تنبعث من الخلف ، ووجد رجلاً ضخماً الجثة ، لاهث الأنفاس يهرول ويقول : «افسحوا الطريق للإمام . .» نظر عمر فرأى

رجلاً يسير في تودة وإطراق، أبيض الوجه ذا لحية رمادية، وعلى رأسه عمامة نظيفة أنيقة، يرتدى جلباباً أبيض، من فوقه عباءة حريرية، وعلى الرغم من التواضع والإطراق، إلا أن المشاهد يشم فيه رائحة من تعالٍ وكبرياء، وتتم عمر: «يا له من وال مرفه!!».

ثم أذن المؤذن، وخطب الخطيب خطبتيه، واصطف الناس للصلاة.. وما إن سلم الإمام. حتى انتشرت الضجة في المسجد. وانبث اللغظ هنا وهناك. وأخذ المصلون يتسابقون ويتزاحمون صوب الأبواب، بينما وقف رجل رث الثياب، معتل الصحة. ضارع النظرات. يقول كلمات استجداء، ويمد يديه طالباً الصدقات والعون من أصحاب النخوة. وأخذت الأجساد المتزاحمة ترتطم بعمر من كل اتجاه. حتى كاد يثور فيهم محتجاً على هذا السلوك الشائن في بيت الله. لولا أنه استغفر الله. واعتصم بالصبر. وتتم ونحن نغادر المسجد: «لكنما يفرون من وباء. أخشى أن تكون صلاتهم مجرد حركات ميتة لا روح فيها. أين الخشوع. والقلوب المعلقة بالله!! الوعاء خال من أي شراب.. الشكل وحده هو ما تهتمون به. عبادتكم بلا جوهر.. أخشى أن يكون الأمر كذلك..».

وصمت برهة ثم استطرد قائلاً: «لم أفهم إلا القليل مما يقوله خطيبكم.. ولماذا يمسك في يده أوراقاً. لكان هذه

الأوراق ستار كثيف يفصل بين قلوبكم . . ماذا قال؟ آه . .
الميني جيب؟»

قلت وأنا أكتم الضحك: «بدعة جديدة . .» .

- «ماذا تعنى . .» .

- «لباس قصير ترتديه النسوة فوق الركبة بكثير، ألم تر شيئاً
من هذا في الشوارع؟» .

- «فهمت أن اليهود المتصرين هم الذين يفعلون ذلك
وحدهم . .» .

- «إنه جنون أصاب العالم كله . .» .

- «والمسلمون؟!» .

- «كثيرات منهن يفعلن ذلك يا أمير المؤمنين» .

احتقن وجه عمر، ودمدم مغتاضاً: «أليس فيكم رجل
رشيد؟!» .

- «الرشيد موجود، لكنه يصول ويجول في حيز
الكلمات، وليس له أدنى سلطة في مجال التنفيذ . .» .

- «هناك يا ولدي أقوام تردعهم الكلمات، وآخرون لا
يلزمون الجادة إلا بالعصا! إنكم مسلمون لكن بأخلاق
اليهود . .» .

تمت في أسي: «هذا قول حق» أجل.. أصبح التدين كلمات مجردة.. ونصائح تلقى، ودموعاً تسكب، وأعياداً تصام، لقد استطاعت الأيدي القذرة أن تنزع عنه السلطة والسلطان، وفرط رجاله في الأمانة، وتنازلوا عن حقهم، فانزوى في المقابر والزوايا ومجالس الذكر والمكتبات.. «هذا حق يا أمير المؤمنين».

وبعد فترة تفكير قال عمر: «إن هزيمتكم قديمة. أرى أن قوة خفية قد تأمرت عليكم. واستلت الإيمان من بين حناياكم، وحثت قلوبكم بالورق والدمى المشوهة.. كان الرجال في المسجد يستمعون إلى الخطيب دون انفعال.. وكان الخطيب يهدر بصوت لم أر لقوته مثيلاً.. لكنه ثرثر كثيراً بلا مبرر.. وكان أكثر اهتماماً بتزييق الكلمات ورصف العبارات، ومخارج الحروف.. والمصيبة أنه كان كثير الأغلاط.. حتى الأسلوب العربي كان يخرج من بين شفثيه مهلهلاً غريباً.. كيف تسيئون استعمال الكلمات والقرآن بين أيديكم.. إنه الميزان.. أنتم أكذوبة كبرى في التاريخ.. حياتكم وفكركم وعلمكم زيف لا مثيل له.. وجودكم مستعار.. أين المسلم؟! لا بد أن تبحث عنه..

ابتسمت في مرارة. آلتني كلماته أشد الإيلام، لكنها كانت تصرخ بالحقيقة. المأساة طويلة متشابكة. جذورها ضاربة في

أعماق وجودنا . تغلفها الحيرة والشك والظلمة ، وجيلنا
مخدر . . تائه . . وأنا أشعر بالجوع الشديد . .

- «يا أمير المؤمنين . . ألا تريد أن تأكل ؟!» .

- «لم أشعر بالجوع بعد . .» .

- «حان وقت الغداء . .» .

- «نحن قوم لا نأكل إلا إذا جعنا» .

- «للطعام أوقات معينة تحددها ظروف العمل ، ونصائح
الأطباء . .» .

- «لا شك أنكم جميعاً مرضى بداء المعدة . .» .

وسرعان ما نسي موضوع الطعام ، وأخذ يتفحص الطريق
ويرمق الغادين والرائحين ، مشدوداً إلى ضجيج العربات ،
ودقات الأجراس وأزيز الطائرات .

- «ما هذا البناء؟» .

- «كنيسة القيامة يا أمير المؤمنين . .» .

- «هل حاقت النكبة بالنصارى أيضاً؟» .

- «أجل . .» .

واستدرك : - «هل أمريكا دولة يهودية؟» .

- «بل تدين بالمسيح . .» .

- «وكيف تركت إخوتها من النصارى، وأزرت اليهود الذين حاربوا عيسى، وحاولوا صلبه؟!» .

- «أمر يطول شرحه . .» .

- «من العسير أن أفهم مبرراً لما يجري في عالمكم . . مساجدكم ضخمة، يروع الناظر رونقها ونظافتها، ومنابركم عالية مزينة بالزخارف والألوان الوقورة . . والثريات المدلاة من السقف تفوق ثريات قصور كسرى وقيصر . . وازدحام العباد يروع البصر . . وتحيدون ترتيل القرآن . . لكنكم في الخضيض . . تناقض مذهل . . أرى الفتنة تطل برأسها في كل مكان . . كيف تجمع اليهود، وكيف أصبح لهم كيان؟!» .

- هززت رأسى في أسى وقلت: «بالصبر . . والتدبير المحكم، والفكر الساهر . . والعلم الجديد . . وقوة المال . . سيطروا على مقدرات الدول وكبار الشخصيات . .» .

قال: «سرقوا من المسلمين بعض فضائلهم . .» .

ومضى في طريقه خطوات، ثم قال: «لكنهم يفتقدون الشيء الأعظم» .

- «ماذا؟» .

- «العقيدة» .

- «عندهم «توراة» يا أمير المؤمنين» .

- «ذلك التحريف والزيف الذي صنعوه بأيديهم، أما زالوا يسمونه التوراة؟! ما أشد ما تخذعون بالمومياوات المتعفنة...» .

وفجأة دوى انفجار هائل رج الأرض تحت أقدامنا رجًا، فتطاير الزجاج والأخشاب، وانقذت الأحجار، وسد الأفق غبار ودخان، وروائح كريهة، ثم تعالت الصيحات من جميع الأنحاء وهمس عمر: «ماذا جرى؟» .

قلت وأنا أرتجف: «هيا بنا لنختبئ وإلا ساقونا إلى الجحيم...» .

- «لن أتحرك قبل أن أفهم كل شيء...» .

- «إنها يا أمير المؤمنين متفجرات وضعتها الفدائيون الفلسطينيون عند نقطة حراسة يهودية، تسىء إلى العرب أشد الإساءات فنسفناها نسفًا. ولا شك أنها قتلت جميع من فيها، وفي لحظات ستقلب الدنيا رأسًا على عقب... هيا بنا...» .

ثبت عمر في مكانه طالبًا المزيد من الشرح، بينت له أن الفلسطينيين أصحاب الأرض التي استولى عليها اليهود لم

يستسلموا . وهم يواصلون جهادهم سرّاً بإمكاناتهم البسيطة ويؤرقون على العدو أمنه في الليل والنهار ، ويقومون بنشاطهم متخفين ، حتى لا تفضحهم نقط الحراسة ، أو يدهمهم العدو من كل جانب ، بعضهم يا أمير المؤمنين يقضى نحيبه شهيداً في المعركة ، والبعض تكتب له النجاة ، وآخرون يُقبض عليهم ويساقون إلى ظلام السجون حيث العذاب الرهيب ، والموت القاسي .

هز عمر رأسه في دهشة وقال : « برغم انتصار العدو ، وتفوقه الساحق ، وعلمه ودهائه ، برغم كل هذا يأتي رجال قلائل يفعلون كل ذلك ؟ ! » .

قلت باعتزاز : « نعم » .

ارتسمت على ثغره الطاهر ابتسامة عذبة أضاءت وسط الدخان والغبار ، وقال : « هم بقية الخير في دنياكم . . قد يكون هؤلاء هم المسلمين الذين لم أجد لهم ريحاً في الشوارع والمساجد . . » نسيت ما حولي ، وشردت في عالم آخر وأنا أغمغم : « هم يعيشون هناك . . في الأغوار والوديان . . وعلى قمم الجبال ، يكدون في الليل والنهار . . قد باعوا أنفسهم لله . . يخوضون الموت والخوف واليأس شجعاناً وبالجهاد يتعبدون . . » .

نظر عمر إلى الأفق البعيد وتمتم هائلاً: «أريد أن أراهم . . .»
ثم التفت إلى فجأة وقال: «لماذا لم يتحدث خطيبكم عنهم» .
- «خطيبنا مراقب ، والسلطات اليهودية تحدد له موضوع
الخطبة . . .» .

- «إذن فهم الذين يخطبون . . .» .

قلت والحسرة تأكل قلبي : «إذن فهم الذين يخطبون . . .» .
- «حتى في بلاد المسلمين يحدث شيء كهذا . . . ما يرضى
الحكام فهو من الدين ، وما يتعارض ووجهة نظرهم فهو كفر
والحاد . . . لقد صنع لنا الذل ديناً جديداً من الفكر الضرير . . .» .
لكنني لمحت في السماء طائرة «هيلكوبتر» تحلق ، ورأيت
سيارات العدو ومصفحاته قادمة مسرعة ، فهتفتُ في خوف :
«هيا يا أمير المؤمنين ، قبل أن يدهمنا العدو ، ويوجه إلينا تهمة
وضع المتفجرات ، والانتماء للمنظمات الفدائية . . .» .
لم نكد نلتفت حتى أحيط بنا من كل جانب ، فوهات
المدافع الرشاشة مصوبة نحونا ، ونظرات الحقد تحاصرنا . . . لقد
وقعنا .



الفصل الرابع

حطت أحزان الأرض على قلبى الباكى . لم أكن خائفاً على
نفسى . كان قلقى من أجل الخليفة يشجب كل أنانية . إن جيل
الكراهية الصهيونى لا يفرق بين الأنبياء والسياطين ، من قديم
كانوا يقتلون الأنبياء . الرحمة فى نظرهم بلاهة ، أنا أعرفهم ،
والعفو لا بد له من ثمن كبير ياباه الشرفاء ، والإخاء ضعف أو
عجز . ليست هذه أول مرة تحاصرنى فيها نيرانهم وكراهيتهم ،
كثيراً ما ساقونى إلى معسكرات الاعتقال ، وفى كل مرة كانت
تثبت براءتى بالدليل القاطع . لكنى لم أكن لأخرج من ظلام
العذاب إلا بعد السياط والصفعات والشتائم والجوع
والظما . . وعمر ابن الخطاب ضيف عزيز حبيب . لا هوية
معه . يرفض الاستسلام والخنوع . من يفعل ذلك معهم لا
يخرج إلا إلى القبر . أنا أعرفهم . يريدون أن يقضوا على أى
رجل تشى تصرفاته بفضيلة . أعداء الفضائل هم لكن يا
عجباً . . الخليفة يقف مرفوع الهامة ، هادئ الأعصاب تنير

الابتسامة وجهه، يتوقد في عينيه الإيمان، وبارك سمته يقين من نوع فريد، قلت له: «ألا تخاف؟! الجنون والكرامية والجوع إلى لحوم الأبرياء.. تحاصرنا من كل ناحية..!».

قال بصوت واضح النبرات: «علمني حبيبي أن الخوف مضیعة للجهد. وإتلاف للوقت، وإفساد للإيمان.. وذل ما بعده ذل..».

ثم التفت صوبهم قائلاً: «ماذا تريدون منا؟».

- «هذه الجريمة أنتم صانعوها..».

- «وما دليلك؟».

- «أنتم عرب أولاً.. وتواجدكم هنا ثانية.. طبيب معكم

الغدر والتخريب..».

وكدت أصعق وأنا أرى عمر يرفع يده، ويهوى بها على وجه الضابط قائلاً: «أيها الأحق، تقيم دعائم القضاء على نوازع الشك والظنون، وتسب أهل الدار».

وانقض الأبالة على الخليفة، وفي لحظات وجدت يديه خلف ظهره وقد غللتا بقيد حديدي، وتتابع تطلقات لا أدرى مصدرها، فانبطحت على الأرض، وأنا في شبه غيبوبة وكأنني أعاني من كابوس رهيب. وأفقت على يد حانية تمسح

على رأسي . ونظرت وإذا بعمر يقف هادئاً باسمًا بلا قيود أو مخاوف . وهتفت : «ماذا جرى؟» .

- «ها أنت تراهم مجندين» .

- «لا أعرف . . كل ما أستطيع أن أقوله إن القوة لله جميعاً . . لا شك يا أمير المؤمنين أن رجال «فتح» كانوا يتابعون المشهد المشير . .» .

ورأيته ينظر إلى الأفق المغبر الحزين ، كأنما يخترق حجب الزمان والمكان . ويترنم بنبرات تفيض بالشجن الحنون : «وفي يوم «الأحزاب» يا فتى احتشد الكفر بشتى قبائله وأسلحته ودهائه . وحاصروا «يثرب» . . أتعرف؟ وحفرنا الخندق مثلما أشار «سلمان الفارسي» . كان الإفلات من هذا الحصار اللعين - كما يبدو للعقل - ضرباً من المستحيل . وحوصرنا أيضاً بالجوع . والبرد . . والنفاق . . وكان يهود بني «قريظة» حلفاءنا . . كانوا يحمون المدينة من الخلف ، ويمدوننا ببعض القوات . . ثم نقضوا العهد والميثاق في أحلك الأوقات . . وانحازوا للأعداء ، أصبحنا بين نارين . . معنى ذلك - في نظر العقل - الموت والفناء لنا جميعاً . . أتذكر ذلك؟ لست أروى أسطورة من صنع الخيال . كان حبيبي رسول الله ﷺ يعدنا بكنوز كسرى وقيصر في هذا الوقت بالذات . . من يصدق

ذلك؟ وضحك بعض الرجال قائلين: يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر والواحد منا لا يأمن على نفسه من الذهاب إلى الغائط؟! والمشير في الأمر أن رجلاً جليل الشأن، من الأعداء، قدم إلينا يعلن إسلامه.. هل جاء ليحمل قسطاً من الهزيمة والعناء؟».

ومسح عمر على جبينه ولحيته، وازدادت ابتسامته إشراقاً واستطرد: «وانتصرنا.. ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً..».

أجل.. انتصرنا على الخوف بالإيمان.. وهرعنا إلى الموت فكتب لنا الحياة..».

وابتلع عمر ريقه: «ولن تخلو الدنيا من الإيمان والمؤمنين في عصر من العصور..».

قلت في اضطراب: «أرى أن نسرع قبل أن يدهمنا العدو..».

قال عمر دون أن يعانى أى قلق: «يجب أن نرحل عن هذا المكان الآن».

وبعد قليل استطعنا أن نركب سيارة كبيرة «أتوبيس». كانت مقاعد الدرجة الأولى كلها مشغولة، وكان الركاب مشغولين بالحادث، وعبرنا المدخل إلى الدرجة الثانية، كنت أجد حرجاً

بالغا في أن يندس الخليفة وسط ازدحام الشغيلة، لكنه لم يبد أدنى تأفف، وبينما كان يشق طريقه إلى مؤخرة السيارة، أمسكت بيده فتاة وقالت: «هذا هو يا إيلي»، لن أدعه يفلت مني هذه المرة، جذبها «إيلي» من يدها في عنف قائلاً: «هذا النوع من التسلية يثير في نفسي التقزز».

- «لكنني أريده يا إيلي».

وعلق أحد الساخرين قائلاً: «أعطه لها يا أخ.. . لله يا محسنين..».

هب «إيلي» من مقعده غاضباً. وتواثبت نظراته في أنحاء العرب، ثم قدم إلى الخليفة، وقال والشرر يتطاير من عينيه: «إذا لم تغادر السيارة، فسأقذف بك في عرض الطريق كي تتحطم عظامك..».

وقذفت بنفسى بينهما، مستعداً للتضحية بحياتي كيلا يصيب الخليفة بأدنى أذى، ورأيت الخليفة ينظر إليه في دهشة ويقول: «ليس لك الحق في أن تنزلي عن هذه الدابة».

وضحك بعض الركاب لسماعهم كلمة «الدابة»، ومضى الخليفة في حديثه: «لقد دفعنا ثمن الركوب.. . ثم إنك لا تستطيع أن تنفذ تهديدك؛ لأنك أضعف من أن تفعلها..».

ورفع «إيلي» قبضته في جنون، محاولاً أن يهوى بها على وجه الخليفة، لكنه التقط قبضته، واعتصرها بعنف، حتى إن «إيلي» أخذ يصرخ مستغيثاً، والضحكات الساخرة تهز أروقة السيارة هزاً، والتعليقات الشامتة تلهب وجه «إيلي» بلذعاتها..

وأسرعت راشيل، وجرت «إيلي» من يده، قائلة: «هذه محطة النزول.. لقد أسأت إلى نفسك إساءة بالغة..». غمغم في حقد: «تفعلينها ثم ترمينني بالعقاب..».



الفصل الخامس

فى نهاية المطاف بلغت منزلى ، وهو فى الحى العربى القديم من القدس ، وهو مكون من شقة صغيرة ذات حجرتين وصالة ، ولم يكن يسكن معى سوى أمى التى ناهزت الستين من عمرها . . رحم الله أبى . . كان رجلاً صالحاً ، وكان يمتلك «كشكاً» خشبياً صغيراً يبيع فيه المشروبات الغازية والأوراق والأقلام والصحف وحلوى الأطفال . . وفى «حزيران» أصابت قذيفة عمياء الكشك بمن فيه وما فيه ، انتهى أبى . . بكيت كثيراً . . تماماً كما بكيت على إخوتى الذين ماتوا فى الميدان .

كان البيت ، برغم تواضعه ومظاهر الفقر التى ترتسم عليه ، نظيفاً هادئاً رطباً ، أرضه مفروشة بنوع رخيص من «الأكلمة» المحلية ، لكنه جميل ، والبيت تغذيه الكهرباء والمياه النقية ، وعلى حيطانه ، المطلية بالجنس الأزرق الخفيف ، عدد من الصور ، أهمها صورة أبى الشهيد ، وتقويم للشهور العربية

والإفريقية، وخريطة لفلسطين الماضي، ولافتة مكتوب عليها بخط كبير «الله» وساعة حائط.

أدخلت الخليفة حجرتي الخاصة، وأسرعت إلى أمي: «كيف أزف البشري؟ لن تصدقيني...».

- «خير... هل تحركت الجيوش العربية، وحن الخلاص...».

- «بل حل في دارنا فخر لا يدانيه فخر...».

قالت في شيء من الملل: «هل أعد لك الطعام؟».

- «لم لا تهتمين بالأمر؟!».

- «أعرف... أحد رجال المقاومة...».

قلت وأنا احتضنها وأغرق جبينها بالقبلات: «عمر بن الخطاب...».

نظرت إلى في شك، لمحت الخوف في نظراتها، ودموعها توشك أن تنفرط، فأسرعت قائلاً: «لست مجنوناً... لسوف تقوم الدنيا وتقع عندما ينتشر الخبر... أتؤمنين بقدرة الله يا أمي؟!».

وبدا الاهتمام على وجهها، وحملت في دهشة، وقالت في شرود: «وكيف يجيء عمر إلى زمان الشياطين؟!».

- «أقسم إنى لا أكذب .. رأيتك هناك .. سمعت كلماته ..
لكأنى أنهل من نبع النبوة .. إن شيئاً كبيراً يحدث .. وحذار
أن يخالجتك الشك فى قدرة الله .. أعدى الطعام .. وافرحى يا
أماه ..» .

وأسرعت بالعودة إلى أمير المؤمنين، تاركاً أمى فى حيرتها
ودهشتها، وفى حجرتى الخاصة مكتبة صغيرة بها بعض
الكتب الدينية والسياسية والأدبية وعلم النفس والفلسفة، كان
عمر يجلس فوق أريكة خشبية مكسوة بحشية مريحة. وأشار
إلى صنوف الكتب قائلاً: «ما هذا؟» .

- «مجموعة من المصنفات ذات موضوعات مختلفة ..» .

- «لكنها صغيرة الحجم ..» .

أعرف أن الكتابات القديمة كانت تسطر على العظام
والخشب وبعض أجزاء النخيل والأحجار. أمسكت بواحد من
الكتب قائلاً: «إن به كثيراً من العلوم، فالأحرف صغيرة،
والأسطر كثيرة، وذلك بفضل اختراع الورق والطباعة» .

وأبدى عمر سروره لهذا الاختراع العجيب، وازداد عجبه
حينما علم أن آلة الطباعة تستطيع أن تخرج عشرات الألوف
من النسخ فى وقت قصير. وابتسمت وأنا أقدم له كتاباً آخر.

- «هذا كتاب عنك» .

بانت الدهشة في عينيه وقال : «عنى أنا؟!» .

- «أجل . .» .

- «أيعرفنى أهل هذا الزمان؟» .

- «ربما أكثر مما عرفك الأولون . . إن لك دويًا هائلًا في الشرق والغرب ، لك اسم طنان يتردد صدهاء في كل صقع من الأصقاع . . النصارى كتبوا عنك أكثر مما كتب المسلمون . . ولك عشاق ومعجبون ، كما أن لك أعداء وناقدين . . هم يعرفون تفاصيل حياتك . . كيف كنت في الجاهلية . . وكيف أسلمت . . وصحبتك لرسول الله ، والمعارك التى خضتها ، وحروبك فى فارس والروم . . وآراءك الكثيرة التى تعالج شتى الموضوعات . . وصلاتك بغيرك من الرجال . . حتى أمورك العائلية . . تصور . . وأيضًا استشهادك على أيدي الحاقدين والكائدين للإسلام . . لست فى حاجة إلى تعريف . .» .

كان عمر ينظر إلىَّ وهو لا يكاد يصدق ، وأخذ يتحدث عن الرواة ، الأمناء منهم والمتحلين ، وأولئك الذين يركبون متن الخيال الجامح ، ثم تناول الكتاب وأخذ يتصفحه ، وظهر لى أنه يجد صعوبة فى قراءة بعض الكلمات لتغير صورة الحروف عن مثيلاتها أيام النبوة ، فطلب منى أن أقرأ صفحة من صفحات الكتاب ، فتناولته وأخذت أقرأ :

« . . فلما كان الغد . جلس أبو بكر في المسجد . وقام عمر يعتذر إلى المسلمين . عما ذكره من أن النبي لم يميت فقال : «إني قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدت في كتاب الله ، ولا كانت عهداً عهداً عهد رسول الله ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله سيدبر أمرنا . ويبقى ليكون آخرنا ، وإن الله قد أبقي فيكم كتابه الذي هدى به رسوله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله به كما هداه به . وإن الله قد جمع أمركم على خيركم ، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار . فقوموا فبايعوا» . . . وقام الناس جميعاً ، فبايعوا بيعة العامة ، بعد بيعة السقيفة . . » .

ثم طويت الكتاب . كان عمر يهز رأسه وأنا أتلو الفقرات . وكانت الدموع تتساقط من عينيه وتبلل لحيته البيضاء . وأخيراً سمعته يقول وهو يجفف دموعه : «كانت أياماً رهيبة» إن موت رسول الله ﷺ صدمة لم أحتملها في البداية . . هذا حق . لم أكن أعرف ماذا أقول ولا ماذا أفعل ، وكان أبو بكر الصديق أعظمنا إيماناً ، وأقوانا يقيناً ، وتقبل الأمر بحصافة وفهم كامل ، أنتم تعرفون الكثير عن حياتنا . . » .

قلت وأنا أقاوم ترددي : «ونعرف اختلافك في الرأي مع خالد بن الوليد ، والناس في عصرنا يختلفون عليه كما يختلف المسلمون في زمانكم . . » .

رفع عمر وجهه الطاهر إلى وقال: «كان الأمر أبسط مما تتصورون.. كان خالد شجاعاً مؤمناً، وكان قائداً محنكاً، وجندياً ماهراً، هذا لا مرأى فيه. لكن ليس هناك بشر منزّه عن الأخطاء.. وقد رأيت لأسباب عدة تتعلق بكيان الأمة وأمنها أن أنحى خالدًا.. وقد فعلت.. وتقبلها خالد. كان أمر الدين وصلاح الرعية فوق الأفراد مهما سموا وحققوا من انتصارات..».

قلت: «وتحدثت مئات الكتب عن شجاعتك وعدلك وزهدك وبُعد نظرك، وعزوفك عن الدنيا وزيفها وبريقها، كنت أروع مثل يצוע مسكاً في رحاب التاريخ..».

لوح بيده محتجاً وقال: «حاشا لله» لم أكن امرئاً بالغ السمو والعفة، كنت بشراً بكل ما تحمله كلمة «بشر» من معان.. وكان هناك عشرات الألوف من المسلمين لا يقلون عن عمر ورعاً وتقوى إن لم يفوقوه شجاعة وعدلاً وإيماناً.. الحق أنى كنت أقلهم حفاظاً على الدين؛ لأن الحكم يجر إلى كثير من الهنات، بل والخطايا في بعض الأحيان.. وأخذ يجفف دمة تسربت من بين أهدابه: «كنت أُرهب لقاء الله.. لو عثرت بغلة في العراق لسُئلت عنها أمام الله لم لم أسوّلها الطريق.. مسئولية الحكم مسئولية كبرى، ولعلها ستنقص من موازيني يوم الحساب..».

قلت في رضى : «إنه تواضع منك» .

صاح في حدة : «أنا لا أتواضع لأعلو، وأكره الزيف والنفاق، لم أكن لأهمل وزر الحكم حيًا وميتًا . ولهذا اشترطت ألا يكون ابني خليفة من بعدى» .

وقطع الحديث طرقات على باب الغرفة . كانت أمى قد أحضرت الطعام فتناولته منها، ووضعته على الطاولة، وقلت : «لا شك أنك جائع الآن» .

نظر إلى المائدة العامرة وقال : «ما هذا؟ دجاج . . ولحم خراف . . وخضراوات طازجة ومطبوخة . . وفواكه ويقول، وأشياء أخرى لا أعرف لها اسمًا . .» .

- «وماذا نأكل؟» .

- «الديكم تمر ويلح . .» .

- «أحيانًا . .» .

ثم أمسك بشوكة وملعقة وسكين وقال : «وما هذا؟» .

- «أدوات نستعملها كي لا نأكل بأيدينا مباشرة» .

- «تعقيد في كل شيء . . حسبتهانوعًا من الأسلحة

الصغيرة . .» .

سمى باسم الله، ثم دعا : «اللهم بارك لنا فيما رزقنا وقنا

عذاب النار» وتناول رغيفًا وقطعة من اللحم وبضع بلحات،
كان يأكل في تأنٍّ ويمضغ جيدًا. يحمد الله من آن لآخر،
ويشرب جرعات قليلة من الماء، وقال: «ماؤكم شديد
البرودة.»

- «شكرًا للثلاجات . . .»

قال وهو يمسخ على فمه التنظيف براحتيه: «الشكر لله . . .
ولاحظ عمر أنني أكل بشراهة، لقد عانيت من الجوع:
«لسوف تصاب بالتخمة . . إن ربع ما أكلته يكفيك . . .»

- «بى نهم شديد . . .»

- «ضعف إرادة» معدتك تصاب بالشيخوخة والوهن . . .»

قلت: «هذه هي الطيبات التي أخرجها الله لعباده . . .»

- «معاذ الله يا ولدي، أنا لا أحرمها . . ولكني أدعوك إلى
الاعتدال والقصد . . أنسيت . . وإذا أكلنا لا نشبع»

- «حق . . .»

وعاد الخليفة يقول: «ألا تلاحظ أنه إذا امتلأت معدتك،
فإن أعضاءك تسترخي، فتلوذ بالكسل. وتخلد إلى النوم . .
وأنتم تحاربون . . .»

وسمعنا ضجة لدى الباب. دق قلبي من الخوف. وتوقف

فمى عن الحركة . وظلت يدي معلقة كيد تمثال صخرى ،
وهتفت أُمى من الداخل : «لقد جاء الشياطين ، أرى
مصفحاتهم وسياراتهم . من النافذة - ألا تهربون؟ . . .» .

لم أكن أدري ماذا أفعل ، إنها الطامة هذه المرة ، وعودتهم
تعنى أمراً خطيراً . وإذا لم يجدوا «الجاني» ، فستقع النكبة على
رأسينا ، وكيف نستطيع إثبات البراءة أمام هؤلاء السار؟ وفجأة
تحطم الباب ، ووجدتهم أمامي ، امتلأت بهم الصالة . . نفس
الوجوه . . وفوهات المدافع . . والعيون الحاقدة التي تقدح
بالشر .

كان عمر يسير بين الجنود مشدود القامة ، رائق البسمة ،
يتمتم بوضع كلمات يناجي بهاربه ، وكنت في الحقيقة أرتجف ،
ولكنني الخليفة قائلاً : «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟!» .

ثم ضحك في وقار : «لم أكن أتصورك على هذا الروع
كله . . .» .

- «إنهم لا يرحمون . . .» .

- «وماذا وراء ذلك؟» .

- «الموت يا أمير المؤمنين» .

- «وهل سمعت يبشر أقلت من يد الموت؟!» .

- «لا . . .» .

- «فقيم الجزع؟» .

قلت وأنا أضرب على صدري: «إنه شيء في داخلي لا أستطيع مقاومته» .

- «أشياء كثيرة في حياتكم لا تستطيعون مقاومتها . . تماماً كما عجزت عن حدة الشراة وأنت تأكل . .» .

- «يحزنني أن أموت قبل أن آخذ بثأري . .» .

سدد إلى نظرات عتاب: «هذا هو الغرور بعينه، لكأن الدنيا يرتبط مصيرها بفرد واحد مثلي أو مثلك . . مئات الألوف من الرجال يولدون . . ويجهادون . . ويتصرون . . كثيرون يموتون . . مات حمزة في المعركة وعاش عمر . . لكن الحياة تسير . . كان حمزة فارساً لا يشق له غبار . . هو عم الرسول . . من مات في المعركة فهو شهيد . . والشهيد حي لا يموت . . تقرأون ولا تؤمنون . . وتفلسفون ضعفكم . .» .



الفصل السادس

السجن . . والليل . . والحرمان . . والمستقبل الغامض . .
كلها تصنع عالماً غريباً بذاته، يولد في حناياه أجنة مشوهة،
يزفها سفاح قذر، لكأنا الحراس قد خلعوا لدى الأبواب قبل
الدخول كل معنى من معانى الإنسانية، إنها غابة تكتظ
بالأحزان، لها قوانينها الخاصة إن صح أن تُسمى قوانين، فى
الحقيقة إنها نزوات بشر معتوهين، يستجيبون لغرائزهم الدنيا
فيفعلون بالمساكين ما يحلو لهم . . حتى الجانى لا يصح أن
يتعرض لذلك البلاء كله، يفترس الوحش وهو جائع، أما هم
فيفترسون البشر ترفاً، وتوكيداً لقدراتهم، واحتفالاً بالنصر
المسروق، هؤلاء هم الصهيونيون خلف القضبان . . هنا ساحة
التحقيق . . ورجال العدو منتشرين فيها، يملثونها صخباً
وضجيجاً . . نظر عمر فهتف: «ماذا أرى؟» وذهبت بعينى إلى
حيث يتطلع، كان هناك عدد من الرجال، قد شُدوا إلى قضبان
حديدية بالحبال، وتدلوا فى الهواء، ينبعث منهم أنين متصل

خافت ، مجردين من ثيابهم ، وفي أماكن كثيرة من أجسادهم خطوط حمراء تنزف دمًا قانيًا . . والمحقق يقول وهو ينفث دخان سيجاره في هدوء بارد غريب : «نحن على يقين من أنك تسلمت المال في عمان ، ودخلت به إلى الضفة الغربية ، وأعطيته لامرأة ملثمة ، لكنك لم تخبرنا عن السلاح» والسجين يتململ ، ويقول بصوت واهن : «لا أعلم . . لا أعلم» ، ويسدد المحقق إليه نظرات ثعبان أرقط ، ثم يضع طرف السيجار المشتعل على خد السجين ، والسجين يتنفض ، لكنه مقيد ومشدود إلى القضبان ، فيئن ، ويعود المحقق للكلام : «المنشورات المعادية تسلمها منك طالب في المدرسة الثانوية ، يلبس سروالاً قصيراً ، فما اسمه؟ أو أين مسكنه؟ ويهمس السجين : «قلت لا أعلم . لا أعلم» .

وعض الخليفة على شفتيه أسى ، وقال : «أفرخ الحقد على مدى السنين في قلب بني إسرائيل ، إنهم آفة العصر بلا جدال» .

قلت : «يا أمير المؤمنين . . أخفض من صوتك» .

- «هل الكلمة جريئة؟» .

- «أجل . . وخاصة إذا نبضت بروح النقد والاستياء» .

تمتم مستغرباً: «فقير من فقراء العرب . . دخل إيوان كسرى شامخ الرأس . . وكان يضرب برمحه في بساطة . . وعمر لا يجرو على سؤال هؤلاء اللؤماء والسخط المجرد عليهم؟ لا كانت الحياة . .

قلت: «يا أمير المؤمنين الأمر جد مختلف . هؤلاء متهمون بأنهم من الفدائيين . . والصهيونيون يعذبونهم ليتزعوا منهم الاعترافات» .

أشرق وجهه الشاحب وهتف: «لكأنى أرى بلال بن رباح . . وخباب بن الأرت . . وياسر . . وسمية . إن في عصركم أمراً عظيماً كدت أجهله . . هؤلاء هم المؤمنون الصامدون حقاً . .

وقدم نحوى أحد رجال المخابرات، والتحدى تشى به حركاته وملامحه، ثم دفعنى بقبضته قائلاً: «فيم تتكلمان؟» .

ثم رفع يده، وحاول أن يصفع عمر، وكم كانت دهشتى عندما رأيت الخليفة يمسك بيد الضابط قبل أن يحقق بغيته، ويهدر: «أنزل يلك وإلا قطعتها . .» .

تدخلت متوجساً خيفة، وقلت للضابط: «معذرة . . إنه شيخ كبير . . قضى معظم حياته في البادية، ولا يعرف عن هذه الأمور شيئاً . .» .

لم أصدق عيني حينما بصرت «إيلى» قادمًا، وعلى ثغره ابتسامة تشفّ واضحة، واقترب من عمر، وغمز بإحدى عينيه قائلاً: «أخيراً وقعت أيها الدون جوان».

تلفت عمر في غيظ وتتم: «الدون؟ هذا الأبله يسبنى».

قهقهه «إيلى». بينما قلت مسرعاً: «لا يقصد ذلك بالتأكيد... كلمة معناها أنك معشوق النساء...».

- «لا أفهم...».

- «أنسيت إعجاب «راشيل» بك؟».

قلب عمر راحتيه، ومسح المكان بنظراته، ثم قال: «ما هذه الأعاجيب!! أهؤلاء هم الذين حاربوكم وانتصروا عليكم، وتحكموا في رقابكم...؟ كيف؟» وظل «إيلى» يقهقه، وأخيراً قال: «لسوف أذهب إلى راشيل على التو، وسأحمل إليها ذلك النبا الطريف...».

بين ساعة وأخرى يفد الحراس، ويدفعون أمامهم رجالاً جددًا تحوم حولهم الشبهات، ومن آن لآخر، يجرد رجل من ملابسه، وتنصب على جسده السياط، وتلاحقه الشتائم المقدعة، والمخابرات يمسون بالأوراق والأقلام، ويكتبون الأسئلة والإجابات، وكأنهم في عجلة من أمرهم، والكلمات التي تتردد هي «السلاح... الفدائيون... المخابى... تكلم...».

اعترف . . الموت . . السجن . . سنسف بيتك . . سننكل
بأختك وأمك . . « وقد تسمع فتى يصرخ من شدة الألم ، أو
يتنحب آخر لهول الذل ، أو يزأر وهو مقيد كما يزأر أسد
حبس في قفص من حديد ، وآخرون معتصمون بالصمت لا
يتكلمون . . بل تنطلق من عيونهم نظرات مهولة ، يزيدها
العذاب حدة وتوهجاً ، ورجال المخابرات الصهيونية يشربون
الكتوس المترعة ، ويغنون ويرقصون . . ويضربون بالسياط . .
ويوجهون الأسئلة . . وعمر يشهد كل ذلك ويدور بنظراته من
مكان إلى مكان . .

- «إنها مواجهة من نوع غريب» .

- «ماذا تعنى يا أمير المؤمنين؟» .

- «صراع عنيف بين الحق والباطل . . أيام عسيرة حرجة
تشبه العصور التي يبعث فيها الأنبياء . . لشد ما أنا حزين
لنكبتكم الكبرى . . لكن رؤيتي لهؤلاء الصامدين خففت عني
بعض الأحزان . .» .

إن الخليفة لم يزل يحلّق في أفق النكبة العامة ، ينظر إليها
من شتى الزوايا والمستويات ، ويمحصها ويدرسها ، ناسياً أنه
متهم ، وأنه قد يُسأل بعد قليل ، ولذا قلت : «يا أمير المؤمنين . .
ماذا ستقول لهم؟ لسوف يسألونك» .

هتف : «عار كبير أن يأتى يهودى ثمل داعر ، ويقف موقف القاضى ، على تراب المسلمين . . لقد اختل شىء كبير فى هذا الزمان ، أن يمكك بمصيركم هنا حفنة من الكذبة والمنحرفين . . سأقول إنى عمر بن الخطاب . . سيضحكون . هم يكرهوننى .

أعرف ذلك على عهد الرسول . ودبروا قتلى . . لن يصدقوا مقالتي . . وأنا مسلم من بنى عدى . . نشأت فى مكة . . كنت أقوم بالسفارة لها ، كنت عنيداً عنيفاً فى حربى لمحمد فى البداية ، ثم أشرق فى قلبى نور الإيمان . . ويومها ولدت من جديد .» .

قلت فى قلق : «هذا لا يهمهم فى قليل أو كثير ، لن يصدقوك ، المهم الحادث» .

- «أى حادث؟» .

- «المتفجرات . .» .

- «ماذا؟ أنت تعلم الحقيقة . . ليتنى فعلتها . . لا يحق لى أن أنسب هذا الفضل إلى نفسى . .» .

ونظرت خلفى ، فوجدت رجلاً من المخابرات مختبئاً ، ويسجل على آلة كل ما يقوله عمر ، ثم استدار وواجه عمر ، كان بودى أن أتفق مع الخليفة على إخفاء شخصيته إلى حين ، وأن يختار له اسماً مستعاراً ، كى نتجنب العديد من المآزق . .

لقد فات الأوان، وها هو رجل المخابرات الصهيوني يقول:
«إذن فانت عمر؟».

هز عمر رأسه في إصرار وقال:

«نعم.. ولتفعلوا ما شئتم، فأنا لا أهاب إلا الله».

«دع الله الآن.. فأنا الذي أواجهك..».

صاح عمر: «خسئت..».

وأخذ الرجل يقهقه سعيداً، ويتمايل يمناً ويسرة، ثم يقيس عمر بنظراته، ويقول غامزاً: «تشبهه إلى حد كبير»، وأخذ يحرك سبابته محذراً: «أنا ولدت في القاهرة، أتعرف الأنتكخانة؟» نظر عمر نحوى فقلت: «دار الآثار القديمة» وقهقه رجل المخابرات مرة أخرى، وهو يقول: «مكانك هناك إلى جوار المومياءات والتحف..» ثم تركنا وأسرع إلى رفاقه، وعاد بهم ليعرض عليهم الكشف الطريف، و«الحالة» الفريدة في نوعها، ووقف عمر بينهم عملاقاً متحدياً، ساخراً من سفاسفهم.

- «إذن فانت عمر؟!».

- «ولم لا؟».

- «والدليل؟».

- «قدرة الله . . .» .

- «الموتى لا يُبعثون» .

- «بل يُبعثون أيها الكذاب . . . خست . . .» .

- «ليس هذا أوان البعث . . .» .

- «وما يدريك لعل الساعة قريب . . .» .

وقال الرجل ساخرًا: «يا عمر . . . لا أنكر قدرة الله، لكن حوادث التاريخ المعاصر لم تشهد شيئًا خارجًا عن سنن الطبيعة . . . لم تشهد معجزة . . .» .

وذهلت إذ رأيت عمر يمسك بأذن الرجل بين سبابته وإبهامه ويقول: «هذا كلام لا ينفي قدرة الله . . .» .

- «أنت لست فطن، تدبر المحاورات بذكاء . . . لا شك أنك كنت دبلوماسيًا خطيرًا . . .» .

وضج رجال المخابرات بالضحك، وأخذوا يتفحصون عمر دون أن يلمسوه. وقال رجل منهم: «هذه حالة معروفة في كتب الطب وعلم النفس. إنه مرض من أمراض الجنون، والتصديق النفسي، هذا الشيخ يتقمص شخصية عمر بن الخطاب يزين له الوهم أنه هو، في الحروب العنيفة تظهر أمراض غريبة. الهزيمة أثرت على أعصاب العرب . . . وهم

ولوعون بالماضي والبطولات القديمة، يجترونها في ليالي
الأحزان. . . حالة هذا الرجل المرضية حالة طريفة؛ لأنها
أصاب رجلاً متقدماً في السن بعض الشيء. . . سيفرح بها
أطبائنا في مصحات الأمراض العقلية والنفسية. . .»

ومال أحدهم ساخرًا نحو عمر: «حدثنا عن فتوحاتك في
فارس والروم».

- «ألا تعرف؟».

- «الغريب في الأمر أن قواتكم القليلة استطاعت أن تمسك
بزمam الأمن في تلك المساحات الشاسعة التي يسكنها ملايين
البشر! كيف؟! هذا هو السؤال. . . إننا نعاني نفس المشكلة
اليوم. . .»

وعلى الرغم من أن الحديث كان مجرد تسلية إلا أن عمر
قال بصدق: «كنا دعاة قبل أن نكون محاربين. . . حملنا إليهم
نور الله. . . أسعد لحظاتنا كانت يوم أن يأتي رجل يعلن إيمانه. . .
كنا نفرح بذلك أكثر من فرحنا بالاستيلاء على حصن أو هزيمة
جيش. . .»

وتطلع عمر إلى السماء وقال: «كانت بغيتنا أن نثبت اليقين
في القلوب، قبل أن نثبت أقدامًا على الأرض المفتوحة. . .
أصبح الذين آمنوا جزءاً من جيشنا. . .»

قال الإسرائيلي: «نحن حملة حضارة مثلكم . . .» .

وقال عمر: «نحن حملة عقيدة أولاً . . . وفي ظل العقيدة الخالصة الصادقة . . . تنبت القيم الفاضلة، وتولد الحضارات ويسعد البشر . . .» .

وتغيرت سحنة عمر، وأشار بيده إلى الساحة الكبيرة وصاح: «هل هذه هي الحضارة التي تحملونها يا أحفاد حبي بن أخطب وكنانة بن الربيع وكعب بن الأشرف؟!» .

ضجوا بالضحك من جديد، ثم سادهم وجوم مباغت، بينما استطرد عمر وكأنه يخطب في جمع من الناس:

- «انتصرت في معركة واحدة، فملاّتم الدنيا ضجيجاً، ودليتم الأبرياء على أعواد المشائق، وعلقتم المظلومين من أرجلهم كالإبل الذبيحة . . . أما نحن، ويفصل بيننا وبينكم أربعة عشر قرناً من الزمان، فقد غزونا العالم بالنور، وغمرناه باليقين، لم يتدل مظلوم على سارية. ولم تزهق روح بلا جرم . . . ولم نغلق أفواه أحد . . . كان كتاب الله يحكم لنا أو علينا . . .» .

وساد صمت، ثم تقدم رجل آخر من عمر، وسدد إليه نظرات دهشة. وقال: «ليس هذا بكلام مجنون . . . أقسم على ذلك.» .

ابتسم عمر قائلاً: «الكلام يشى بسر قائله فى كثير من الأحيان».

وأردف الرجل: «إنه يحاول خديعتنا، وأظنه أحد زعماء المسلمين الروحيين، يرتدى زى خرافة...».

رد عمر فى ضيق: «استحال ذكاؤك إلى خرف ممتهن... أنت المجنون».

احتقن وجه الضابط وصرخ: «أين وجدتموه؟!».

وهنا ظهر «إيلى» وقال فى تشفٍّ ظاهر: «كان فى منطقة الانفجار... وهرب...».

- «خذوه إلى زنزلة ٦٤ وأعدوا له وجبة دسمة».

وقال عمر وهو يحرك سبابتيه منذراً: «لن أكل طعامكم... أنا لم أنس الشاة المسمومة التى قدمتها زينب بنت الحارث إلى الرسول غداة النصر فى خيبر...».

فضجوا بالضحك من جديد.

لم يكن الخليفة يعلم أن الوجبة الدسمة فى مصطلح المخابرات تعنى التعذيب الذى لا يطاق، وعلى الرغم مما كنت أعانيه من آلام وأحزان إلا أنى شعرت بشيء غير قليل من الرضى والاطمئنان حينما ساقونى أنا الآخر إلى زنزانة رقم ٦٤. كنت أفكر فى الخليفة أكثر مما أفكر فى نفسى، وكانت

كلماته المؤثرة لم تزل تطن في أذنى و يتردد صداها في فكرى ،
فتزيدنى يقيناً وصبراً . .

يا لها من ليلة تلك التى قضيتها هناك ، لقد أخذونى بعد
ساعة إلى ضابط التحقيقات ، الذى واجهنى بملف كامل عن
ماضى وعن تاريخ أسرتى منذ عام ١٩٣٦ ، وثورة عز الدين
القسّام ، وعن أخى الذى يعمل فى منظمة «فتح» كقائد بارز ،
وزوج شقيقتى الكبرى الذى يعمل مهندساً بالكويت ويجمع
التبرعات للفدائيين ، ويلقى المحاضرات ، وعن أختى المدرسة
بالقاهرة ، تلك التى تتسبب لمنظمة نسائية عربية ، معروفة بنشاطها
الكبير ، بالاختصار ، كانوا يعرفون عنى أكثر مما يجب . .

تألمت كثيراً لوقع الشياط ، وخاصة فى البداية ، إحساس
بالظلم كاد يذهب عقلى ، وشعورى بالعجز أذى نفسى أشد
الإيذاء . . العجز مأساة حارقة . . آه ، لئن كُتبت لى الحياة
فلسوف أنتقم لهذه الأحزان القاتلة . . الانتقام للمظلومين
والمعذبين من جلاديهـم حق مقدس . . وعدت إلى الزنزانة . .
لم أستطع النوم ، كانت جراحى النفسية أشق وأقسى من جراح
جسدى الذى يصرخ بالآلام الهائلة ، وكان عمر يجلس إلى
جوارى ، ويربت على رأسى فى حنان ، ويجفف دمايى بطرف
ثوبه الأبيض النظيف ، فأشعر براحة كبرى ، وكنت أتطلع إلى
وجهه الطاهر ، وأتذكر أنهم سوف يقتادونه فى الصباح إلى

الساحة الملعونة، وأغمض عينيّ حينما أتخيل الشياطين الملعونة الكافرة وهي تهوى على وجهه . . وأصرخ: «مستحيل . . مستحيل» فيقول في إشفاق: «ماذا بك يا ولدي؟»، فأقول ودموعي تنهمر: «لا أتصور أنهم سوف يعذبونك»، فيتمتم: «وما يعلم جنود ربك إلا هو».

العجيب في الأمر أنه في اليوم التالي، وحوالي الثانية عشرة النصف ظهراً، وكان الخليفة يؤدي صلاة الظهر إماماً بعد أن تيمم لعدم توافر الماء، جاء شرطى صهيونى، يبنى الأصل، ثم نادى عمر . . وهتف باسمى أنا الآخر . .

عندما وقفنا أمام مدير السجن قال لنا وابتسامة صفراء تهوم على ثغره ذى الشفاه الدقيقة: «مبروك . . لقد ثبتت براءتكما . . وأمسكنا ببعض الجنة . . ولقد صدر أمر بالإفراج عنكما . . يجب أن تشكرا المواطنة الإسرائيلية راشيل . . إنها مواطنة شريفة . .».

وغمرتني موجة من الفرح، لكنى سمعت الخليفة يقول: «وأين هؤلاء الـ . . «الجنة» . : لشد ما أنا متشوق لرؤياهم . .» . أمسكت بيد الخليفة فى رقة، وقلت ضارعاً: بالله عليك . . هيا بنا . . فهذا مطلب عسير التحقيق .



الفصل السابع

ومضينا فى الطريق العام بخطى وثيدة، كانت تشقلنى الذكريات، وتحاصرني المشاهد المؤلمة، لكنى تذكرت كيف نجونا من هذه الكربة الطارئة، فحمدت الله، وسجدت روى شكرآله، ماذا لو سارت الأمور فى مجراها المعروف فى مثل تلك الاتهامات الجزافية؟ وخيل إلى أن عمر مؤيد بقوة علوية قادرة على إزالة العقبات التى يضعها الأعداء فى الطريق، وإلا فكيف أفسر ذلك التصرف من «راشيل»؟ كيف يقضى الخليفة هذه الفترة فى السجن دون أن يمبس بأذى! كان عمر يمضى مطرقاً ساهماً حزيناً، لا يكاد يُعير أى شىء فى الطريق أدنى اهتمام، قلت: «ما يكربك يا صاحب رسول الله وقد نجونا من ظلمهم؟».

نظر إلى عاتباً، كانت نظرفته تحمل العديد من المعانى، وأخذ يقول: «تركنا فى ظلام السجن وراءنا عديداً من الأبرياء.. مال أحدهم على هامساً: سأعطيك عنوان أختى المسكينة التى

استشهد زوجها معنا هنا، كي تعطىها بعض المال . . فلم لا
أحزن . . كم امرأة وكم طفلاً وكم شيخاً الآن يقاسون الحرمان
والجوع؟! .

وأخذ عمر يحدثني عن واجباتنا نحو الأسر التعسة،
وينحى باللائمة على تحجر قلوبنا، ويؤكد أننا نفتقد التناسق
والتكامل اللازمين في مثل هذه المعارك العنيفة، فقلت له:
«أى أمير المؤمنين، نحن دولة ممزقة . . احتلت أرضها. وتشرذ
شعبها في كل واد، وليس لنا حكومة ولا ميزانية ولا أجهزة
إدارية . . فلسطين الآن مجموعة من المشردين أو المحاربين أو
السجناء . . إنك تحملنا ما هو فوق طاقتنا.

هز كتفيه في رفض وقال: «ما هي فلسطين؟ أليست رقعة
صغيرة من أرض الإسلام؟ وأين بقية المسلمين وحكامهم؟
أنت تتكلم كلاماً غريباً. حتى لكان الرابطة العقيدية قد تمزقت
تماماً . . .»

قلت: «البعض يمدوننا بالسلاح، والبعض الآخر يجود
علينا بالمال، وكل هذا للمجاهدين، وبعض الدول تفتح الباب
لإخواننا ليعملوا ويرتزقوا . . وهناك دول تقاسى مثلما نقاسى
من عدوان ومتاعب» .

وبدا لعمر أننا نناقش الأحداث بطريقة هروبية، ونلتمس

المعاذير للانحرافات والتقصير ، كان اقتناعه الكامل بأن الأمة كلّا لا يتجزأ، وحدجة صلبة . . الطعام فيها لجميع المسلمين ، والرجال في كل أرض أفراد في جيش واحد وإن اختلفت اللغات والألوان ، أو نأت الديار ، ومسئولية أى حاكم مسلم نحو شعب فلسطين المهزوم تضاهى مسؤوليته تجاه أى فرد من شعبه ، وتمت دون وعى وأنا أستمع لكلمات الخليفة : «أحلام» .

- «ماذا؟» .

- «معذرة . . الواقع المرير يجعلنى أهذى» .

هتف في حدة : «ولم اليأس ؟ تلك حقيقة الدين من قديم ، وواقع التجربة الرائدة في التاريخ . . انظر . . لقد ابتليتُم بالأنانية على مستوى الفرد والدولة . . لم لا تحطمون هذه القيود والسدود ؟ امتزجوا . . تأخوا . . ودوسوا الأسلاك الشائكة التى تفصل بينكم . . واحفرو قبرا لكل بادرة من بوادر التفرقة . . » .

لم أستطع السكوت ، بينت له الدول التى اعترفت بإسرائيل وتبادلت معها العلاقات الاقتصادية والثقافية والتجارية ، وارتبطت معها بأواصر المنفعة والصداقة ، قال : «انحراف الراعى من صنع الرعية . . » .

- «الرعية لا حول لها ولا قوة . . .» .
- «يا عجباً . . إنه بدونها لا يساوى شيئاً، ولا يحقق نصراً» .
- «الرعية يا أمير المؤمنين تُمر فتطيع . . .» .
- «والحاكم؟ أهو من طينة أخرى غير طينة الناس . آه . . وقف رجل في المسجد وصاح . . والله لو رأينا فيك يا عمر عوجاجاً لقومناه بسيوفنا . . وحمدت الله لأن في الرعية من يقومني بسيفه . . آه . . وتكلمون عن التجربة والحضارة والتقدم في عصركم» .
- قلت في أسي : «كان ذلك في عصر عمر . . .» .
- صاح في حدة : «لكن عمر ليس شيئاً . . .» .
- «كنتم إسلاماً يمشى على الأرض . . .» .
- «حضارة عصركم تلد أجنة مشوهة . . .» .
- ضحكت في حزن : «وفينا من يحاول خلق الأجنة في أنابيب اختبار . . .» .

في كل لحظة يكتشف عمر جديداً مشيراً أو مخزياً أحياناً، فيبدو على وجهه الكريم الغم والكدر، كان أشد ما يؤلمه أن أناقشه أمراً يبدو له بسيطاً غاية البساطة، ولشد ما كانت تحزنه

أفكارنا العبية المتعثرة إزاء تلك البديهيّات، وكان يردد دائماً:
إننا مخدوعون، وإننا نهتف بالمبادئ بأفواهنا ولا نتمثلها، أو
ندعها تسرى في قلوبنا وأرواحنا.

ثم انتزع نفسه فجأة من سيل الحوار العاصف وقال: «مال
على أحد المحبوسين وقال: «الأمانة في جوف المقبرة،
هناك... عند سور باهر...» حاولت أن أفهم كلماته فلم
أستطع، استفسرت منه، فأشاح بوجهه يائساً... قلت لنفسى:
لعله يهذى لما انتابه من آلام وأرق...».

توقفت عن السير وهتفت في اهتمام: «هل قال لك
حقاً؟».

- «عجيب أمرك... أنا لا أروى إلا ما حدث...».

- «هذا نبأ سار، كنا ننتظر هذه الرسالة منذ وقت طويل...».

قال في دهشة: «آية رسالة؟».

- «تلك رموز نعرف معناها، لقد انتظرنا حامل الرسالة
طوال هذه الفترة دون جدوى، فرجحنا أنه قتل أثناء عبور خط
النار... بارك الله فيك يا أمير المؤمنين...».

قال عمر وقد تبدت على وجهه علامات حب الاستطلاع:
«لم أفهم بعد».

- «إخوتنا في الخارج أرسلوا لنا كمية من السلاح، وأخفوها في مقابر منطقة يقال لها «سور باهر» .. ولسوف نبادر بالذهاب إلى هناك، واستحضارها للبدء في التنفيذ ..» .
ثم التفت إلى فجأة وقال : «أنت أحد الفدائيين؟» .

طأطأت رأسي في خجل ، ولم أستطع أن أنطق ، أحاطني بساعده القوي ، وضمني إلى جواره ، ثم مال على رأسي وقبلها وتمتم باسمًا : «لو علموا ذلك في السجن لفصلوا رأسك عن جسدك ..» .

هزنى النبأ ، لكأنما عثرت على كنز طال بحثي وتنقيبى عنه ، عندما أحمل السلاح في يدي ، أشعر أن هامتي تتناول حتى تعانق السحاب ، أشعر أنني حر ، وعندما أموت فوق سلاحى ترف ابتسامة حلوة هائثة على ثغرى .. القوة العادلة المبصرة ينبوع كرامة لا توصف ، وعزاء للمناضلين الشرفاء .. وأخذت أتمتم ببضعة أبيات من الشعر كان يحلو لى ترديدها :

أنا إن سقطت فخذ مكانى يا رفيقى فى الكفاح

واحمل سلاحى لا يرعك دمي يسيل مع السلاح

وانظر إلى شفتى أطبقنا على هوج الرياح

وانظر إلى عيني أغلقتنا على نور الصباح

أنا لم أمت.. أنا لم أزل أدعوك من خلف الجراح

وفجأة وجدنا راشيل أمامنا، لا أدري من أين جاءت.

قالت راشيل: «كنت أجرى خلفكما وألهت..».

اعتراني شيء من الضيق، فهتفت: «ماذا تريدان؟».

أشارت بأصبعها المخضوب نحو الخليفة قائلة: «أريده

هو...».

نظر عمر إلى وجهها الفاتن المغطى بالمساحيق والألوان،

وشعرها الذهبي المتناثر. وأغمض عينيه حينما وقعتا على

صدرها شبه المكشوف، ثم أشاح بوجهه كلية وهو يلحظ أن

فستانها فوق الركبة. ويكشف عن ذراعها..

- «اذهبي أيتها الفاجرة.. ماذا تريدان؟».

قالت وهي تتراقص كطفلة مشاكسة: «لقد أنقذت

حياتك».

- «أنا لم أجرم...».

- «لا يهم.. كثيرون من الأبرياء يلقون حتفهم.. ألا

تعرف؟».

- «ثم ماذا؟».

- «وتعهدت كتابياً بضمانكما.. أي خطأ ترتكبانه، أو أية

شبهة تلحق بكما، سأدفع الثمن . . ولهذا لا بد أن أقضى معكما بعض الوقت حماية لكما ولنفسى أيضاً . . » .

قال الخليفة مستغرباً : « نخرج من يد سجان إلى سجانة » .

قالت : « كان في الإمكان أن أترككما لكلاب الصيد، لم يكن أحد ليلزمني بالشهادة والتعهد، بل إن «إيلي» اعترضني بشدة . . لقد هجرته من أجلك . . » .

التقط عمر عصا قصيرة، وانهال على ذراعها في غيظ : « لا يصح أن تخاطبي رجالاً وأنت كالعارية . . » .

قالت منفعلة : « وماذا في ذلك ؟ للمرأة الحق كل الحق في أن تبرز مفاتها . . » ثم هزت كتفها في ميوعة وقالت : « وخاصة إذا كانت جميلة . . » .

وتحسست مكان الضربات ثم قالت في توله وهي تضع ذراعيها على كتفه : « ثم إنني أحبك . . » .

دفعها في عنف أوقعها على الأرض، فنظرت إليه وهي مددة بعينين يطل منهما الغضب والتمرد، وهتفت : « أستطيع أن ألقنك درساً لا تنساه أيها البدوي . . » .

وتجمع عدد من الناس بين مستغرب ومستطلع، وصاح عمر : « أنا لا أعرف ماذا تريد هذه البلهاء مني . . » .

هبت الفتاة واقفة، وهى تنفض الغبار عن ثيابها، ثم قاسته بنظراتها المتوعدة، وانصرفت . . والناس يتساءلون ويعجبون وأنا واقف أرقب المشهد المثير لا أعرف كيف أعالج الأمر، ثم مد عمر خطاه الواسعة. وهو يجرنى من ذراعى، ومضينا فى الطريق تاركين وراءنا اللغظ وعلامات الاستفهام . .

- «لا أكاد أصدق ما تقع عليه عيناي».

قالها عمر وهو يغذ السير غاضباً، قلت: «جانب من عالمنا المائج بالأعاجيب . .».

- «أنا شيخ ناهز الخمسين، وهى صغيرة السن، وعندها الآلاف من بنى جنسها . . وبينى وبينها فراسخ من تناقض الفكر والأخلاق . . تاريخ كامل يفصلنا».

قلت متعاطفاً: «السينما والروايات الغرامية صنعت عوامل كثيرة من الزيف والإغراء . .».

- «كيف؟».

- «لا أدري كيف أشرح الأمر . . بدعة جديدة عن حب الفتيات الصغيرات للكحول والشيخوخ . . لوليتا . . وشعراء فتاة الخمس عشرة . . وأفلام باريس وهوليود . . هكذا . . بدع الحب . . والأزياء . . المسرحية تؤثر فى جيل . . حائر متهور

يلهث وراءه النسوة كي يرتدين ابتكاراته الغريبة . . ما أكثر بدع أوروبا، وتجار الصهيونية!!» .

ضرب عمر كفًا بكف: «لم أفهم شيئًا يذكر . .» .

- «هي تحبك أيًا كان السبب» .

- «تريد أن تتزوجني؟!» .

- «ليس الزواج بالضبط . .؟» .

- «ماذا إذن؟» .

- «صداقة . . معاشرة . . علاقة من نوع ما بين رجل وامرأة تريده . .» .

قال وهو يضع سبابته على فمه: «علاقة!! بين رجل وامرأة دون رباط شرعي؟!» .

- «تريد أن تستمتع بحق الزواج دون زواج . .» .

أشاح عمر بوجهه وصاح: «أعوذ بالله . . لقد دفنا ذلك مع الجاهلية . . كانت الجاهلية أرحم، كان العهر يستتر في البيوت، لكنه اليوم في الشوارع، ويحميه القانون . . إن عالمكم يسمى الأشياء بغير أسمائها . . لم لا تقول إنه زنا ودعارة . .» .

همست خجلاً: «أجل . .» .

- «ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . . .» .

- «تلك مبادئهم يا أمير المؤمنين . . الفتاة في عصرنا تولم لصديقها في بيتها تحت سمع وبصر أمها وأبيها . . ولا حرج أن تذهب معه في رحلة أو نزهة . . لكن، والحق يقال، كثيرون من المسلمين لا يرتكبون هذه الآثام . .» .

رمقني عمر بنظرة دهشة : «أنت تتكلم ببساطة مذهلة ، وهدوء غريب ، دون أن يثور الدم في عروقك . . لشد ما ينقصكم الاشتعال المقدس . .» .

هززت رأسي قائلاً : «الإثم يتصب في كل مكان . . لكل عالمه ، ولا تدخل في حرية الآخرين . .» .

قال عمر : «يا للكارثة!! إنها حرية فسوق . . وهذه الصور البائسة تتعرض لحريراتنا نحن . . تقطع علينا الطريق ، وتنشر مبادئها لجر الضعفاء منا . . إنه هدم للفضائل ، وصرف للناس عن الحياة النظيفة السوية . . أهنأك اعتداء على حريراتنا وحريرات الآخرين أبشع من ذلك!» .

وتوقف عمر عن السير ، وصاح بأعلى صوته ، وكأنه يخطب في مظاهرة : «فلتذهب حريرتها إلى الجحيم ، إذا تعارضت مع الصالح العام ، وسممت حياة الناس ، ومكنت للإثم بين أبناء الأمة . .» .

يا عجباً، إننى أسمع كلاماً ذا قيمة لأول مرة فى هذه القضية، كلاماً لم أتلقيه من فوق منبر، أو أقرأه على صفحات كتاب، إنه كلام منطقى مؤثر، يتألف مع روحى وعقلى، انطلاقاً من قضية الحرية نفسها . . وانتزعنى عمر من أفكارى قائلاً: «أنا أؤمن بالحرية؛ لأنى أؤمن بالله، اعترضتنى امرأة فى المسجد، وأنا أحاول تحديد المهور، ورمتنى بكلمات الشريعة القاطعة، أعلنت على الملأ: أصابت امرأة وأخطأ عمر . .» .

وأخذ عمر يضحك فى مرارة ويقول: «عالمكم مجنون، ويتهمنى بالجنون . . فى ظل رفاهية المادة تنحدرون إلى الحضيض . . ومقضى على بنائكم الزائف بالفناء . . علمكم الكافر سيهدم فى يوم من الأيام قصور الوهم والنعيم . . يا رجس العصور . . ومبأة التاريخ . .» .

اقتربنا من المنزل مرهقين مكدودين، وآلام السياط تعاودنى، ورأسى يدور من قلة النوم وعنف الأحداث، لكن «سيارة أجرة» سوداء تعترض طريقنا، وتنزل منها امرأة مشتملة بعباءة سوداء ضافية، وعلى وجهها شال شفاف أسود، ووقفت قبالتنا، فصحت مبهوراً: «راشيل . .» .



الفصل الثامن

قستها بنظراتى الحائرة، وحاولت جاهداً أن أفهم ماذا وراءها، أهنك سر تطويه عنا، أم أن لها هدفاً بعينه تريد تحقيقه؟ هل مجرد ميلها إلى الشيخ، ورغبتها فى العبث، والاستجابة لخيالات المراهقة التى غزتها الروايات والسينما والمجلات الخليعة؟ هل هذا هو كل شىء؟ أم تراها جاسوسة ماهرة تحاول أن تهتك سر الغموض الذى تظنه وراء الشيخ؟

إنها أمور محيرة، فلقاؤنا معها فى البداية جاء عن طريق الصدفة البحتة، ولو كان عمر يخفى سرّاً خطيراً لمضى فى طريقه، دون أن يتعرض لها أو يشير تلك الضجة الكبرى التى استوجبت لقاءتنا مع الشرطة. ومعاناتنا للمشاكل الخطرة..

ودُهشت عندما سمعتها تقول: «لا تشك فى أمرى، لقد ارتديت زياً يليق، أعرف أنك ممن يرفضون تبرج النساء.. أيها الشيخ أنت لا تعرف مدى ما أثرته فى من فضول.. حسناً

لنكن أصدقاء . . لقد ضربتني مرتين . . هذا أمر غريب . .
امراة تريد أن تناقش وتفهم ، هل في ذلك عيب ؟ » .

هتف مستغرياً : « وكيف تأمنين على نفسك مع رجل قد
تراوده أمنيات طائشة ؟ » .

- « إنني أثق فيك » .

- « وأنا أرفض هذه الصداقة المشبوهة » .

- « أدينك يأمرك بذلك ؟ » .

- « ديني يأمرني ألا ألقى بنفسى إلى التهلكة ، وألا أقترب
من الشبهات ، وألا أجالس نافخ الكير » .

قالت باسمه مستفسرة : « نافخ الكير ؟ ! » .

- « أجل . . ألا تعرفين الحداد ؟ » .

- « إن هدفى هو المعرفة . . » .

ضحك عمر : « ألدى المجنون معرفة ؟ ! هكذا قال بنو
جلدتك » .

- « أنت زعمت أنك عمر بن الخطاب » .

- « وماذا فى ذلك ؟ » .

- « ما عهدنا شيئاً كهذا . . العظام تُبلى ، الإناء تحطم إلى

شظايا، وانسكب المحتوى . . ومضت أربعة عشر قرناً من الزمان . . فكيف تعود إلى الحياة؟! .

- «كما حدث لأصحاب الكهف، وجري «لعازر» وآدم مخلق؟» .

- «آدم . . .» .

- «إن الله على كل شيء قدير . . كل شيء . . أنفهمين؟» .

- «إنها إحدى بديهيات العقائد . . لكن الناس لا يصدقون في إيمانهم بها . . أنا يهودية، لكني لست متدينة . .» .
قال رافعاً حاجبيه مستغرباً: «ماذا تعنين؟!» .

- «لا أشعر بقيد واحد من قيود الدين، كل ما يهمني في «التوراة» أنها تجاوزت مع آمالنا السياسية في الوطن والخلاص . . وما عدا ذلك فلا أؤمن بشيء . .» .

حملقت «راشيل» مذهولة عندما أكد لها عمر أن «التوراة» حق، وأنه يؤمن بها، وأن «الإنجيل» حق، وأنه يؤمن به، وأنه لا إسلام ولا إيمان بدون الإقرار بالكتب المقدسة كلها، والرسل والأنبياء جميعاً، لا نفرق بين أحد من رسله سبحانه، واستطرد في شرحه لها كيف أن الدين عند الله الإسلام، وأن الإسلام هو رسالة جميع المرسلين منذ آدم حتى محمد عليهما الصلاة والسلام . . لكنه استدرك قائلاً: «لكن أين التوراة

الحقيقية؟ لقد أضاعها أحباركم ثم مسخوها كلمات الله، واخترعوا أقوالاً ما أنزلها الله... ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] ولم ينج الإنجيل كذلك من العبث وأهواء المنحرفين... .

كانت تستمع إليه في يقظة، وتنهل كلماته في شوق، وكان انفعاله ويقينه الكبير يضفيان على حديثه قوة وتأثيراً وبدا الارتياح على وجهها وهي تقول: «الأحاديث تطول، وأنا أبحث عن النور، أو تسمح لي بمرافقتك بعض الوقت؟».

قال عمر ملوحاً بسبابته: «في حدود».

- «جئت لأناقش وأتعلم...».

- «وأنا لا أوصد باب العلم والهداية في وجه أحد...».

وهتفت في صدق: «واعلم يا أمير المؤمنين أنني لا أنتمى لشيء... وعندما أشعر برضى فكرى وروحي... فلسوف أنتمى على الفور...».

- «الصراحة تعجبني، ما كرهت في أسلافك إلا

الكذب... والنفاق والغدر...».

- «فلترك للزمن الحكم...».

زمجر في غضب: «الحكم لله . . ما هذه العبارات السخيفة التي تتحدثون بها . .» .

- «عفوًا . . ليس من السهل الإقلاع عن عادة متأصلة، والآن ماذا قلت؟» .

- «موافق . .» .

الحق أننى انزعجت أيما انزعاج لإشراك هذه الفتاة الطائشة فى حياتنا، أخذت أشرح للخليفة خطورة ذلك، وذكرته بعشها وسرعة تقلباتها، إن طرافة التجربة قد بهرتها، والإثارة الكامنة فى الموقف قد دفعتها دفعًا للخوض فيما ليس لها، هى تريد الاكتشاف والعبث والتسلية . . لكنه أراحنى عن أذنه فى رفق وقال: «أنا لا أخاف إلا الله، ما جئت لأكتم كلماتى، أو أقذف بها فى الظلام، ليكن لها ما تريد . . عمر لا يرهب أو يخجل من إعلان كلمة الحق ولو حاصرتنى طائراتهم من كل مكان، وعمر لن تستهويه حسناء يهودية، فقد فشل أسلافها فى غابر الأيام، وسأسقيها العلقم . . الحق فى فم الكثيرين مر المذاق . . قد تسخر منى وترمينى بالبله والسذاجة . . لكنى لن أراجع، قد تظن هذه الفتاة أنها تخدعنى . . قد تنصرف عنى فى أى وقت، ولا تؤمن بأية كلمة مما أقول، كل هذا لن يجعل اليأس يتسرب إلى نفسى، ولن يمنعنى من إطلاق كلمتى . .» .

وليكن ما يكون . . الكلمة الطيبة كالغيث، إن أصابت أرضاً طيبة أنبتت الخير فترعرع، وإن أصابت أرضاً سبخة رطبت الأعماق، وسارت إلى حيث يريد الله، أو تصاعدت أنفاساً ندية إلى الأفق . . لكن الغيث ينزل دائماً . . ومن الخصب تتولد الحياة . . والكلمات الخالدة تتردد في الآفاق أبد الأبد . . وقد آن أوان الصلاة . . فاذهي عنا الآن . .

هكذا تكلم عمر . .



عادت «راشيل» إلى بيتها في القدس الجديدة متوترة الأعصاب، قلقلة الفكر، محتقنة الوجه، كانت تستعيد كل ما قاله عمر وتفكر فيه، وتقارن بين حصيلتها القديمة. وبين ما يقوله هذا الرجل. إن ما يقوله في الحقيقة أقرب إلى فطرتها، وأشد تواءماً مع نفسها . . واشتد بها الضيق حينما وجدت «إيلي» في انتظارها: «ما الذي أتى بك الآن؟» .

- «كلمات لم أسمعها منك منذ تعارفنا . .» .

قالت ممتعضة: «هناك أوقات يحب المرء أن يخلو فيها إلى نفسه» .

شمّلها بنظرة مستغرب وقال: «ما هذا الزى الذي تلبسين؟! أهو بدعة من بدع كريستيان ديور؟»

قالت ساخرة: «بل هو ستر للبدع الرخيصة . .» .

- «وماذا جرى لك يا «راشيل»؟! هل أنت متعبة؟!»

ألقت بنفسها فوق مقعد مريح، وأسندت ظهرها إليه، ووضعت ذراعيها على جانبيه، وقالت وهي تحملق في السقف: «كان حلو النظرة، واثق الكلمات، محلّقاً بأفكاره كالنسر الجارح . . تذييني حركاته وإشاراته، بسيطاً في ذكاء، متواضعاً في رفعة، خالياً من عقد العصر ونقائصه . . هممت أكثر من مرة أن ألقى بنفسى على صدره العريض، وأنسم عبيره، وتمنيت أن تعصرني ذراعه . . وأن أبكى بحرارة على كتفه . . لكن قوة خفية كانت تحجزني . وتشل تحركى . .» .

دق «إيلي» الأرض بحدائه، وصاح في غيظ: «ما هذا الهذيان؟!» .

- «إنى أعى ما أقول . .» .

- «كانت تصرفاتك دائماً تتسم بالغرابة والشذوذ» .

- «وأنت دكتاتورى النزعة، ترمى من لا يلتزم برأيك بالخيانة والغدر والجهل . . أنت رجل مخبرات بالسليقة» .

قال فى اشمئزاز: «إننى أحتقر هذه الاتجاهات الغيبية السخيفة» .

- «أنت تدوس أحلامي بحماقتك، وتتدخل فيما لا يعينك».

- «كيف؟».

زمجرت قائلة: «لست جارية لك، إن لي ذاتي وأشواقى الخاصة، تريد أن تمتلكني وتحجر على أفكاري.. هذا ليس حباً». ركع أمامها، وسالت ضراعاته الذليلة: «يا حبيبتى... بالله عليك لا تحطمي حلمنا الجميل من أجل وهم طارئ، أو نزوة عابرة.. تذكرى الأيام الحلوة، ورائحة الشواء والكثوس فى البيارات الهادئة الخضراء.. وتذكرى لقاءنا الخالد عند الهيكل يوم احتللنا القدس وطردها العرب، وتعاهدنا على الزواج.. ورقصنا فى ساحة الأقصى وشربنا حتى ثملنا..».

دفعته مستنكرة وقالت: «أصبحت أشمئز من هذه الذكرى.. انتهى الأمر. لم أعد أحبك، هذا شيء خارج عن إرادتى، ففيم الضراعة؟ أم تريد أن تجرني من شعري إلى الجحيم كما تفعل بالعربيات المتهمات؟».

وشردت ثانية، وأخذت تقول: «كان للنصر مذاق حلو آنذاك، لكنه لم يطل، كل شيء ينتهى بسرعة.. لم أحظ بالسعادة الدائمة بعد.. مازلت أعانى القلق والأرق والحيرة.. طبول النصر تصدع رأسى.. أكره الغابة

والوحوش .. أكره الغابة والوحوش .. آه .. كنت أبحث دائماً عن شيء لا أعرفه .. في أعماقي تيه خالد .. .

قال في شراسة وتحذُّ، وقد نهض: «لكني أعرف، وأنت أيضاً تعرفين .. تريدان أن تغرقى نفسك في بحر الشهوات الجامحة .. تريدان ذلك الرجل بأي ثمن .. ولسوف تملينه بعد ليلة واحدة .. .»

أدارت له ظهرها، ثم ضحكت في توتر، وسرعان ما استدارت نحوه ثانية وهي تقول: «ليته يقبلني خادمة عنده».

- «هذه الترهات الرومانسية .. إنني أكرهها .. .
أكرهها .. .»

- «أيها التعس أنت لا تعلم ما يعتمل في داخلي».
قهقهه ساخراً: «رغبة مسعورة، في جسد محموم .. .»
ابتلع ريقه وقال في تحذُّ، وقد تصبب عرقاً: «حسنًا ..
لسوف أقضى على هذه الخرافة بطلقة من مسدسي».
- «أنقتله؟»

- «أجل .. لا أستطيع الوقوف أمام هذا الانحدار والحماسة طويلاً».

قهقهت في توتر وقالت: «لن تفعلها».

- «لدى السلطة الكاملة كرجل مخابرات ، ولن تعينني الحيل» .

قالت بصوت ناعم متكلف : «أنا مكلفة من قبل رئيسك بالمخابرات ، كي أكتشف الرجل وأبحث عن هويته وهدفه . . .» .

ساد الشحوب وجهه وقال : «منذ متى ؟» .

- «اليوم في الصباح» .

ثم قالت بعد فترة صمت : «وعند اللزوم سأخطر الرئاسة بأنك تتعرض لمهمتي المقدسة . . .» .

ابتسم في حيرة : «إذن فأنت في مهمة رسمية . . .» .

- «ربما . . .» .

بدا الغضب على وجهه الشاحب ، كان في داخله ثورة عارمة ، بدت في رعشة يديه ، وتأرجح عينيه ، لكنه كظم غضبه وتناول صحيفة وكتاباً كانا معه ، وسلسلة ذهبية ، ومذياًعاً صغيراً . . ثم انصرف .



الفصل التاسع

- «ما هذه الأوراق؟».

- «صحف الصباح يا أمير المؤمنين . . وهى مليئة بالأنباء المحلية والعالمية».

دقق الخليفة النظر فيها، ومر سريعاً بصورها وأعمدتها، فقلت: «فى هذه الصفحات أخبار الدنيا شرقاً وغرباً، لا تجد حادثاً ذا بال، أو مشكلة من المشاكل الدولية، أو اكتشافاً علمياً، أو احتكاكاً عسكرياً بين دولة وأخرى، إلا وتجد عنه التفاصيل الكاملة فى نفس اليوم . .».

قال الخليفة: «عجيبه!!! فى نفس اليوم؟!».

- «أجل . .».

- «كيف؟».

- «هناك مؤسسات خاصة للأنباء، يجمعها مراسلوها ويعثون بها باللاسلكى أو الراديو وآلات التيكروز فى

لحظات .. وفي الصحف أبواب للسياسة .. والفنون ..
والأدب .. والعلوم .. وإعلانات عن السلع .. حتى الجرائم
لها متخصصون يكتبون عنها .. » .

حملق قائلاً: «تجلس هادئاً في بيتك، وتقرأ كل أخبار
الدنيا، بينما تتناول فنجالاً من القهوة! أي سحر حملك على
جناحيه إلى هذه الآفاق الشاسعة .. إن مثل هذا الاختراع
يذيب الحواجز والحدود، ويسخر من المسافات .. ما كان هذا
ليخطر لنا على بال .. قدرة الله وسعت كل شيء، وأنتم لا
تدركون جلال هذه النعم، لو بلغنا بعض هذا الشأن لخرت
الأم ساجدة لله شكراً، ولكنكم برغم هذه الآلات، تلغون في
الإثم والفجور .. تستطيع أن تمتطي هذه الوسائل إلى الخير
والفضيلة، وتستطيع أن تجعل منها مركباً للنساء .. » .

وابتسم في رضى وهو يقول: «صاروحكم أو بعض
طائراتكم تقطع المسافة بين مكة وبيت المقدس في وقت
قصير .. وتتساءلون: أكان إسرائا الرسول بالروح أم بالجسد؟!
لو كنت مكانكم لما أصابني أدنى شك في إسرائا الرسول بروحه
وجسده .. » .

أمسكت بالصحيفة، وأخذت أقرأ عناوينها بصوت مرتفع:
«الدول الكبرى لم تتوصل إلى حل لمشكلة الشرق الأوسط»،

«أوثانت يصرح بأن على جميع دول المنطقة الالتزام بقرار مجلس الأمن»، «اشتباك بين الفدائيين ودورية إسرائيلية في الجليل الأعلى وغور الأردن»، «تبادل إطلاق النار في خط المواجهة بقناة السويس»، «انفجار كبير في القدس، أحد المتهمين العرب يزعم أنه عمر بن الخطاب . . .» «ودق قلبي» ثم صورة للخليفة وأنا إلى جواره!! أصبح الأمر مشاعاً، وستصبح القصة على كل لسان، قال الخليفة: «أهذه صورتي، إن راسمها بارع . . .».

- «هذه الصورة من صنع آلة صغيرة».

- «آلة صماء!!».

- «أجل، وتعمل فوق نظام دقيق».

- «ألا يصيبها الخلل؟».

- «بالطبع . . .».

كنت أناقش الخليفة، وأنا نهب للفكر والقلق، سمعته يقول: «ماذا كتبوا عني؟».

همست في خجل: «نفس السخافات التي رددتها المخابرات الإسرائيلية».

هز رأسه قائلاً: «يرمونني بالجنون . . .».

- «فليقولوا ما شاءوا، فستغشى الحقيقة أعينهم».

لم يضايقه الأمر كثيراً، أما أنا فقد أوجست خيفة، لسوف يتقاطر الناس من كل مكان ليتسلوا بالأعجوبة، وليشهدوا «المعجزة»، وهذا سيحاصرنا بالفضول من كل مكان، ويعوق الخليفة عن القيام بواجبه.

وهتف الخليفة: «لو بلغنا من العلم الدنيوى ما بلغتم، لما استغرقت هداية العالم منا أكثر من بضعة شهور، ولأخذنا بيد الناس إلى الجادة. . . ويبدو أن زعماء العالم اليوم لا يستغلون ما وهبهم الله من قدرات إلا لجرّكم إلى الانحراف والخنوع والغرور. . . القوة فى أيديكم وسيلة لقهر المساكين، والرفاهية تخمة وأدواء، والحرية دعاة، والعلم تحكيم للأناية على مستوى الفرد والدولة. . .».

ثم صاح: «ألم يقم فى عصركم رجل واحد يأخذ بيد العلم إلى الإيمان؟».

تنهدت فى حسرة: «لم يخفت ذلك الصوت على طول الزمان».

- «والنتيجة. . .».

- «لكنما أصبنا بالصمم. . .».

- «وكيف تشق الكلمات طريقها عبر الضجيج والهباج وسعار الشهوات؟ الشياطين التي ترهقون بها ظهور الأبرياء في السجون، لو استعملتموها في جلد الدعارات والزيغ، لتظهرت مجتمعاتكم من الأوبئة، ولسادت الفضيلة كل الأنحاء...».

كز عمر على أسنانه، وساد وجهه شحوب ظاهر، وتندى جبينه بالعرق، وتقبضت عضلات وجهه، ثم انحنى قليلاً إلى الأمام، واضعاً يده على بطنه جهة اليمين قليلاً، وتمتم: «لم أعد قادراً على احتمال تلك الآلام...».

وثبت من مكاني مضطرباً، وقلت: «ماذا بك يا أمير المؤمنين؟».

- «لكنني تجرعت سمّاً... آلام بشعة تعتصر أحشائي».

- «لا بد من زيارة طبيب...».

قال في كلمات متقطعة: «كنا على عهد الرسول نشرب منقوعاً لبعض الأعشاب بعد غليها... وسرعان ما كانت تختفي الآلام...».

وذكر عمر اسماً غريباً لبعض الأعشاب لم أسمع به من قبل، وفكرت في تصفح قاموس اللغة الذي أمتلكه، لكنني حاولت إقناع الخليفة بأن زيارة الطبيب لا بد منها، وهي لن

تستغرق سوى بضع دقائق، وبالطبع أعطيته فكرة عن الطب وتقدمه في عصرنا، ومجالات الجراحة والعقاقير والتخصصات الكثيرة، والسنوات الطويلة التي يقضيها الطبيب لكي ينال إجازته . .

وكان واضحاً أن الخليفة لديه رغبة دائمة في التعرف على كل جديد، ومحاولة اكتشاف كنه كل شيء يقابله، وكثيراً ما كان يقول لى إنه لكي تصدر حكماً في أية قضية من القضايا يجب أولاً أن تلم بكل أطرافها، وتتصورها وكأنك تعيشها . .

وعندما دلفنا إلى أحد المستشفيات العربية بالقدس القديمة مال عمر نحوى قائلاً: «أينهم صهيونيون؟» .

- «لا . .» .

- «وهل تثق في هؤلاء الأطباء؟» .

- «كل الثقة، ولى بينهم أصدقاء» .

جلس الخليفة على طاولة الكشف النظيفة البيضاء، وأخذت عيناه تدوران في أرجاء الغرفة مكيفة الهواء، ويرقب الأضواء المشعة من السقف حيث لمبات النيون الصافية، وينظر إلى الصور الملونة التي تبرز أحشاء الإنسان وأجهزة جسمه المختلفة، واتسعت حدقتاه دهشة وهو يرى هيكلًا عظميًا كاملاً معلقاً في ركن من أركان الحجرة، وهمس: «أيمكن أن يحدث ذلك؟» .

- «إنه هيكل حقيقي . . .» .

- «من صاحبه . . .» .

- «عبد من عبيد الله» .

تتم في ألم عميق : «ذهب كل شيء . . . ذاب الجلد واللحم . . . وتبخرت الأحشاء . . . وماتت الرغبة . . . لا جموح ولا تمرد . . . لم يبق سوى عظام نخرة لا حراك بها» .

وأخذ يستغفر الله ويحوقل ، ثم استطرد : «كأنه قطع من خشب . . . تعرت من كل كبرياء» .

وتتم في أسى : «تزينون قصوركم بعظام الموتى» .

- «حاشا لله ، إنه شيء للتعلم والدراسة . . .» .

ودخلت فتاة ممشوقة القوام ، رائقة البشرة ، حلوة السمات ، تغطي رأسها بغطاء أبيض ، وترتدى زياً محتشماً سابغاً ، لا يبدى سوى جزء من عنقها ويديها والجزء الأسفل من ساقها ، وعلى وجهها ابتسامة وادعة يوشىها حزن غامض ، واقتربت من عمر ، وهي تمد يدها بمقياس الحرارة ، فامتنع محتجاً وهو يقول : «أهذا هو الطبيب؟» .

- «بل الممرضة . . .» .

- «ماذا تريد مني؟» .

قالت باسمه: «لا بد من تسجيل الحرارة والنبض وضغط الدم».

وتدخلت قائلاً: «هذا هو الأسلوب المتبع يا أمير المؤمنين لا مجال للاعتراض...».

- «لا أستطيع أن أسلم بكل ما تعملونه، يجب أن أفهم، أتريدون تخفيف آلامى مقابل امتهان خلقي وكرامتى؟».

وكان لا بد أن أشرح له ما غمض، وأقنعه بما يجري، وسرعان ما فتح فمه، ثم أطبق بشفتيه على مقياس الحرارة وبعد أن تم أخذ الحرارة قال: «لماذا لا يقوم رجل بهذه المهمة؟ أليس من الأوفق أن تخصص هذه الفتاة للمرضى من النساء؟».

قلت في دهشة: «ألا يجوز أن تقوم النساء بعمل كهذا؟».

- «لا أعنى ذلك... بعض نساءنا اشتركن في المعارك، وحملن السيوف، وضمندن الجراح... لكن نساءنا كن غير نساءكم، أنتم تسيثون استخدام الرخص، وتنفرون من الفروض...».

جاء الطبيب بعد وقت قصير صامتاً، وإن ابتسم بحكم العادة، فقلت له لأبدد الوحشة والوجوم: «طبيب من مصر».

التفت عمر إليه قائلاً: «أو تذكرون عمرو بن العاص؟».

ابتسم الطبيب ، ثم شرد بنظراته إلى بعيد :

- « كانت أياماً رائدة قل أن وجود يمثلها الزمان » .

قال الخليفة في عتاب : « وكانت له هنات ، لم يكن من العدل أن تمر دون حساب عسير » .

أجاب الطبيب بابتسامة مقتضبة ، ثم أخذ في الفحص الطبي ، أنا يضع المسماع على صدره وقلبه ، وأنا آخر يضغط بيده على أماكن مختلفة من البطن ، ثم أخذ يوجه بعض الأسئلة المتعلقة بالطعام والشراب والهضم ، وحركة الجهاز البولي ، ووقت ابتداء الأعراض وصفاتها . . أسئلة دقيقة شاملة لكل شيء . . وتمتم عمر : « هل عرفت الداء » .

- « أجل ، لكن لا بد من إجراء فحوص مختبرية تتعلق بالبول والدم والبراز ، وقد تحتاج لصورة بالأشعة السينية . . » .

ابتسم عمر برغم الآلام وقال : « لا أعرف معنى لما تقول ، لكن . . أنتم متسرعون في كل شيء إلا تخفيف آلام البشر . . » .

وتوقف الطبيب فجأة عن الفحص ، وأطال النظر إلى وجه الخليفة وهتف : « يخيل إلى أنى رأيت صورتك اليوم في الصحف » .

هز عمر رأسه ضاحكًا وقال: «أجل . . أنا مجنون
الأمس . . يا عالم الفضائح».

قال الطبيب: «إنها فرية رموك بها، الصحف الإسرائيلية
خاصة مولعة بالأكاذيب والقصص المثيرة».

دهش الطبيب حينما سمع مريضه يقول: «وما وجه الغرابة
في أن أكون عمر؟».

شملة الطبيب بنظرات شك: «إنه شيء غير مألوف».

- «غير مألوف، لكنه جائز . . ألم يقرأ اليهود شيئًا عن قتل
بنى إسرائيل والبقرة؟ وعزير؟ الإيمان بالله يتضمن بداهة
الإيمان بقدرته وأنت عالم . .».

همس الطبيب في حيرة: «كلام منطقي، لكن يتعذر على
قبوله».

- «منطقي . . ومقنع . . ثم ترفضه؟!».

- «تلك هي الحقيقة».

- «إيمان غريب!».

- «يقيني الوحيد أيها الشيخ هو أنك في كامل قواك
العقلية . .».

قال الخليفة بهدوء وثقة: «وكيف أقمت بناء هذا اليقين؟».

- «المشاهدة والتأمل ، مقياس العلم والمنطق . . .» .

- «أى ولدى . . أنت تمزق حديثي . . وتتقى منه ما تشاء . . تلك خطيئة التجزئة . . الفهم الموحد أين؟ لم لا تقبلني أو ترفضني ككل؟» .

هكذا تكلم عمر . .

وقال الطبيب وقد بدا الارتياح على وجهه : «لنخفف آلامك أولاً . . أعتقد أنك مصاب بالتهاب بالزائدة الدودية ، وستحتاج لجراحة عاجلة . . هذا المرض فى كبار السن ، يحتاج إلى تدخل سريع . .» .

دق قلبى ، وفاجأنى اضطراب مباغت ، ماذا لو مات الخليفة أثناء العملية؟ الحدث الكبير ينتهى هكذا بسرعة ، وتجهض آمالى العريضة ، أى إزعاج أعانيه!! قلت : «يا صديقى الطبيب ، أليس هناك بديل للجراحة؟» .

- «لا أضمن . . .» .

تدخل عمر قائلاً : «لا تزعجنى الآلام كثيراً ، وما دام الأمر ضرورياً ، فإن قضاء الله لا فكاك منه . . إننى أفر من قدر الله إلى قدر الله . .» .

همس الطبيب : «لن تشعر بأدنى ألم ، فستستسلم لنوم هادئ عميق .

الفصل العاشر

أثار وجود الخليفة بالمستشفى ضجة كبرى بين العاملين فيها، وقد علق الدكتور «وهيب عبد الله» على ذلك قائلاً: «القصة طريفة لا شك فى ذلك، لكنكم أيها السادة ملتاثو العقول، تستهويكم الخرافات، أنتم تشاركون فى صنع وهم سخيف»، لكن الجراح الذى استقبله وهو الدكتور محمود عنانى قال: «لا أستطيع أن أقبل القصة أو أرفضها، إنها تحتاج لدراسة وإمعان فكر، ولا بد من إجراء بعض الاختبارات والملاحظات للوصول إلى الحقيقة بطريقة قاطعة...».

غير أن الدكتور عبد الوهاب السعداوى، وهو طبيب باطنى عُرف بالتدين قال فى ثقة: «لَمْ لا يكون ما حدث حقيقة؟! إننى أعرفك يا «وهيب عبد الله».. أنت مادی جدلى، قد حطمت نظريات ماركس وتلامذته ما لديك من روحانيات، طمست الجانب المشرق من عالمك الذاتى».

وجرى عبد الوهاب السعداوى إلى غرفة العمليات كالمجذوب، وعدد من زملائه يلاحقه، كذلك بعض المرضى والمرضات، والفراشين والفراشات، وما إن بلغ السرير الذى ينام عليه الخليفة حتى انكب على قدميه يقبلهما، ويذرف فوقهما الدموع، ويقول فى انفعال حاد: «يا حبيب رسول الله، كنت دائماً أقول: نحن فى حاجة إلى رجل مثلك.. إلى الإيمان الممتزج بالنصر.. القوة التى تخالطها الرحمة.. العقاب المضمخ بالعدل.. يا أمل المساكين فى عالم الضياع والعذاب..».

استقام عمر فى سريره، ومسح على جبينه وشعره فى لطف وقال: «أنت الطبيب الوحيد الذى آمن بوجودى هنا، حسناً. إنه شيء يسعد قلبى، غير أنى لا أرى مبرراً لتقيل قدمى، إنه ضرب من العبودية لا أحبه.. تعال هنا.. جفف دموعك، وارفع رأسك عالياً..».

ثم ضمه عمر إلى صدره قائلاً: «من أنت؟ كيف وصلت؟» - «أنا من تعرف، عبد من عبيد الله شقى بالحيرة طويلاً.. كان الطريق وعراً.. متوهجاً بالنار والعذاب والقلق.. اتخذت العقل وحده رفيقى.. شعرت أننى فقدت جانباً رائعاً لا يدركه إلا المخلصون الباحثون عن نور الحقيقة.. الخرائط

في يدي، وأنا أسير.. وأسير. حتى سقطت إعياءً، وعيناي معلقتان بالسمااء.. جرعة ماء!! أين؟ أبحث عن دليل.. لا أجد.. سمعته في البرية يقول: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤] وعرفت الطريق يا ابن الخطاب.. البصر والبصيرة.. والروح والمادة.. العقل والعاطفة.. الوجود الحق بكماله.. ومن يومها وأنا أنعم بالمذاق الحلو الشهى.. أصبح عملي عبادة.. وصلاتي محراباً إلى الله.. ونومي عفة.. ويقظتي منهاجاً وأنا أبحث عنك من قديم، وأعرف عنك الكثير..».

قال عمر وقد شفت مشاعره: «هل عرفت شيئاً عن قصوري وعصيانى وندمي؟».

- «يا باعث الأفراح في دنيا البائسين..».

- «أنا بشر غير معصوم. وقد رباني حبيبي.. وعاتبني ونهاني.. لم أولد كاملاً.. كانت حياتي سعيًا متواصلاً للكمال الذي لم أبلغه.. لكنني كنت سعيداً وأنا ألث في الطريق بغية الوصول..».

وضجت حجرة العمليات بالشهيق والبكاء، كانت غالبيتهم من العمال والعاملات والمضمدين والمضمندات، وارتعوا فوق الخليفة يتحبون، ويلثمون جسده وثيابه، حتى

كاد يختفى تحت أيديهم ورءوسهم، وصاح الدكتور وهيب عبد الله في حدة: «أيها الحمقى، لقد أتلفتم التعقيم، وأفسدتم نظام حجرة العمليات... هل نحن في مستشفى مجاني؟ إذا لم تنصرفوا على الفور فسوف أشدد عليكم الجزاء، وأستدعى الشرطة لإخراجكم بالقوة...».

ثم جذب الممرضة رجاء. تلك التي استقبلت عمر في البناية، وانتهرها قائلاً: «ما هذا الذي تفعلين؟ ولم البكاء؟!». رماه عمر بنظرة طويلة، وقال موجهًا الحديث لمن حوله: «أصلحوا ما أفسدتموه، وعودوا إلى أعمالكم... أخوكم يقول الحق، ويدعوكم للنظافة والنظام والتعقل، تفرقوا يغفر الله لى ولكم...».

وكان الدكتور محمود يقف شاحب الوجه، يتفصد جبينه عرقًا، قلبه يدق في عنف، وإلى جانبه وقفت «رجاء» محتقنة العينين، مرتجفة الجسد، بينما اكفهر وجه «وهيب» وقدم نحوها قائلاً: «ما بك؟».

قالت: «لا أعرف، يبدو أنني أحببت هذا الرجل... سمعته يهمس وسط الضجيج: أسرجوا شعلة الحق بزيت المعرفة، ورطبوا القلب بعذب اليقين... واطفئوا هج الضلال بأنفاس الندم والتوبة... وابدءوا كما ولدتكم أمهاتكم أحراراً».

نظفاء . . واشدوا باللحن العظيم : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

ثم أخذت تتحب ، وتكتم انفعالها دون جدوى ، وتمتت : « لا أستطيع أن أسيطر على نفسي . . لقد امتلكتني كلماته . . لكم أحب هذه الكلمات . . » .

وقال عمر بصوت مبحوح يغمره الانفعال : « يا أبنائي . . أن يستأصل الداء ؛ كي تجف الآلام . . » .

وفي دقائق كان كل شيء هادئاً ، لا تكاد تسمع في غرفة العمليات إلا أزيز . الغلايات ، ورنين الآلات المعدنية ، والعاملون يتحركون في صمت ووقار جاد ، والقلوب تخفق بلحن حان حبيب . . ويعد أن حُقن الخليفة بالعقار المحدد ، تمدد هادئاً ، وكان قد أوصى بشدة ، أن تستر عورته أثناء النوم الصناعي ، وقبيل الإفاقة ، بعد انتهاء العملية ، كان يتكلم دون وعى ويقول : « بسم الله الرحمن الرحيم . . من عبد الله عمر أمير المؤمنين ، إلى النعمان بن مقرن . . سلام عليك . . فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه قد بلغني أن جموعاً من الأعاجم كثيرة ، قد جمعوا لك بمدينة «نهاوند» ، فإذا أتاك كتابي هذا ، فسر بأمر الله ، ويعون الله ، وينصر الله ، بمن معك من المسلمين ، ولا توطنهم وعراً فتؤذيهم ، ولا

تمنعهم حقهم فتكفرهم، ولا تدخلهم غيضة، فإن رجلاً من المسلمين، أحب إلى من مائة ألف دينار، فسر في وجهك حتى تأتي «ماه». فإني قد كتبت إلى أهل «الكوفة» أن يوافقك بها، فإذا اجتمع إليك جنودك، فسر إلى «الفيروزان» ومن جمع معه من الأعاجم من أهل فارس وغيرهم، والسلام عليك. . .

آه. . . إنها مسئوليتي الكبرى، أريد أن يكتب القواد إلى بكل شيء وأن يصفوا كل شيء عن أرض المعركة وطبيعتها، أريد أن أكون كأنى أعيش بينهم. . . آه. . . إم. . . آه يا ويحك يا عمر، ورثت عبثاً ضخماً، ماذا تقول لربك يوم تلقاه. آه. «يا سعد لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول ﷺ وصاحبه، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ، ولكنه يمحو السيئ بالحسن، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم في دين الله سواء، يتفاضلون بالعافية، ويدركون ما عنده بالطاعة، فانظر الأمر الذي رأيت النبي ﷺ يلزمه، وعليك بالصبر. . .» قال طبيب التخدير معلقاً: «لقد أوشك أن يفيق».

وقال عبد الوهاب السغداوى الذى يخفى جزءاً كبيراً من وجهه وراء القناع الأبيض فلا يظهر إلا عيناه اللتان تدمعان: «هذه رسائل وردت في كتب التاريخ بنصها. . . ورسالة للنعمان، وأخرى لسعد بن أبى وقاص. . . انظروا كيف كان

يضع الخطة العسكرية لمن يحاربون في فارس وهو مقيم بالمدينة . . احذروا الجبل . . انحرفوا صوب الشرق . واستعدوا لعبور النهر في وقت كذا . . كان يعيش المعركة بعقله وقلبه . . آه ليته يتكلم ساعات وساعات . . أما سمعتم، كيف يخاطب رجاله، وكيف ينصح خال الرسول؟! .

كان يوماً مشهوداً . . كل من بالمستشفى تسابقوا إلى حجرة المريض، وسرى النبأ في كل مكان، وضرب الناس عرض الحائط بكلام الصحف، وقال قائلهم: «الصحف تكذب دائماً، إسرائيل تريد أن تخفق أى نور يسطع في عالم المسلمين . .» .

وزحف ألوف من الناس صوب المستشفى العربي، وكان لا بد من حماية النظام بوضع قوات كافية من الشرطة ورجال الأمن هنالك، حتى لا تُستغل الظروف، أو تستشرى الفوضى ويندس المخربون، أو تندلع المظاهرات المعادية للاحتلال، واستطاع كثير من المقتدرين أن يلقوا على «المريض» نظرة خاطفة، عن طريق دفع المال أو الوساطات، لقد تحولت الشوارع والميادين القريبة من المستشفى إلى خلايا نحل واختلط الليل بالنهار، فالحركة دائبة، والضجة لا تنقطع، وقد اضطرت الشرطة الإسرائيلية في بعض الأحيان، وخاصة بالقرب من الأبواب الرئيسية للمستشفى، إلى إطلاق النار

للتخويف، في محاولة لتفريق التجمعات المخيفة التي تنذر بالخطر . .

واستغل محررو الصحف الفرصة، واتصلوا ببعض العاملين بالمستشفى وأخذوا عنهم بعض الأحاديث الصحفية، بعضها بأجر، لكن أغلبها كان تطوعاً فلم يقبل أصحابها أية مكافأة .

وفي اليوم التالي ظهرت الصحف، وبها تحقيقات كثيرة عن الموضوع المهم، وأدلى رجال الدين، وعلماء النفس، ورجال الأمن بأرائهم . وقال أحد علماء الدين الرسميين من المسلمين: «لم يرد نص بهذا الخصوص في أحاديث رسول الله ﷺ ولم يتعرض له الفقهاء على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم، وعصر المعجزات قد انتهى منذ زمن بعيد، ومن أن لأن يظهر رجل يدعى النبوة، أو يزعم أنه المهدي المنتظر، أو يؤكد أنه أحد الصالحين قد بعثه الله من جديد لهداية الناس . . وهذه كلها خزعبلات وبدع، ما أنزل الله بها من سلطان . . وقد يشوبها الكفر والعياذ بالله، وقانا الله وإياكم من شره . . » .

وقال طبيب يتسب لحزب العمال الإسرائيلي، ومتخصص في علم النفس: «لست أجد أدنى صعوبة في تشخيص هذه الحالة . . قد رأيت آلافاً مثلها في المصححات النفسية والعصبية،

هذا يزعم أنه نابليون، وآخر يعتقد أنه «هتلر» زعيم النازية، وعلاج مثل هذه الحالات ممكن، فقد رأيت حالات كثيرة شفيت تمامًا. . .».

أما مدير المخابرات الإسرائيلية فقد صرح: «إن ما يهمني هو اعتبارات أمن الدولة، أنا لا أعترض على رأى رجال الدين أو علماء النفس، لكننى أشك أن وراء هذا الرجل خطة مدبرة. . الحذر واجب، فقد يكون أحد العملاء أو الجواسيس الخطرين، وقد كان فى نيتنا القبض عليه، لكن بعد أن شاع أمره، وسلطت عليه الأضواء، لم يعد هناك مجال للخوف منه».

وتتم رجل فى الشارع: «الله قادر على كل شىء، لا يمكن الجزم بكذبه أو مرضه النفسى أو عمالته لجهة من الجهات. . هذا رجم بالغيب، وليس هناك ما يمنع أن يكون رجلاً من الصالحين، أو أن يكون عمر بن الخطاب بجسده وروحه. .».

وأصر الدكتور وهيب عبد الله على رأيه وتحليله حينما قال: «ربما يكون إنساناً أغرق فى التصوف، واشتد إعجابه بعمر بن الخطاب، حتى خيل إليه أنه هو نفسه. وأنا لى رأى الخاص فى عمر أيضاً «لا شك أنه أحد عمالقة «اليسار» فى الإسلام، وكذلك رفيقة أبو ذر الغفارى. . هذا شىء يجب أن يكون معروفاً. إذا ما فكرنا فى التاريخ الإسلامى وتقييم رجاله

بمقاييس العصر الحديث . . وبرغم الإغراق الميتافيزيقي لعمر وغيره، إلا أن «يسارته» كانت نقطة تحول في الكيان الاقتصادي، والبنیان الاجتماعي والطبقي آنذاك، كان عمر مؤمناً بالجماهير وقضية كفاحها العادل، وهو ما يمكن أن نسميه في عصرنا ممثلاً لأمانى البروليتاريا، وتطلعاتها الثورية التقدمية، وحققها في امتلاك السلطة، ولم يكن عمر بقادر على أن يعلن رأيه بصراحة في البناء العقائدي للدولة القديمة، وذلك لقوة الزحف الميتافيزيقي العارمة . . كان عمر باختصار حلقة في سلسلة النضال البطولي للطبقة العاملة، وإن شابت تصرفاته وسياسته نزعة برجوازية لم يكن في الحقيقة - كما يبدو لي - راضياً عنها، لولا مدهانة الجماهير التي لا ترحم . .».

أما الجراح الدكتور محمود العناني، فقد بقي على تحفظه: «لا أريد أن أتسرع في الإدلاء برأى، لنتظر قليلاً، الكلمة الأخيرة حاسمة وخطيرة، ومن ثم لا بد أن يسبقها تأمل وتفكير وتمحيص» . .

وهتف الدكتور عبد الوهاب السعداوى حينما سأله المحرر: «الموت حق . . والبعث حق . . وليس هنالك مؤمن في أى دين من الأديان ينكر قدرة الله . . إن الله على كل شيء قدير . .».

وصرحت المريضة رجاء قائلة : « رأيت نور اليقين على وجهه ،
وقرأت في عينيه الصدق ، وسمعت من كلماته الإخلاص
والإيمان ، وكانت روحه تشملنا وتحلق فوقنا . لقد آمنت
بصدقه . . لم أر في حياتي قط شيئا له . . » .

لكن الأمر الذي اهتمت به الصحف أشد الاهتمام ، وأولته
الكثير من الرعاية والتدقيق ، هو قصة «راشيل» مع الخليفة ،
فقد كتبتها إحدى الصحف في صفحة كاملة ، مزدانة بعديد من
الصور ، هناك صورة لراشيل في زيها القديم «المني جيب» . ثم
صورة أخرى لها بالعباءة والshal الشفاف الأسود ، ولقطة
ماكرا لصديقها السابق إيلي ، وقد بدا عليه الكدر وشقاء
الهزيمة ، وصورة ضخمة لعمر مكتوب عليها «فارس الأحلام»
وسرد دقيق لقصة راشيل مع الخليفة ، مع إضافات ومبالغات لا
أساس لها من الصحة ، وأحاديث مفتراة ، وتناقضات وكالات
الأنباء كحادث من أطرف حوادث العام ، وانهالت الرسائل
من كل مكان مستفسرة في إلحاح ، بل إن الكثيرين من البلاد
الغربية قد حجزوا أماكن على الطائرة المتجهة إلى إسرائيل .

كنت أرقب هذه وأنا لا أكاد أصدق عيني وأذني ، هل أنا في
عالم الخيال ، أم دنيا الواقع ؟ لقد التبس الأمر علىّ ، ودار
رأسي ، وشعرت بما يشبه الإغماء . .

الفصل الحادى عشر

قدمت «راشيل» إلى المستشفى محاطة بكوكبة من الحرس ،
تضع على عينيها منظاراً أسود ، وتمسك بيمنها منديلاً أبيض ،
وبدا الاحمرار على أرنبه أنفها ، وكانت آلات التصوير
وأضواؤها تلاحقها ، وتدهمها من كل جانب ، وعدسة
التلفزيون تثر أزيزاً مسموعاً ، وتحت إبطها الأيسر حملت علبة
كبيرة من الورق المقوى مرسوم عليها صورة لنجمة من نجومات
السينما اللامعات ، كانت أوامر الشرطة - كما بدا لى - أن تيسر
لها مهمتها ، وتؤدي مطالبها دون مناقشة ، وفى غرفة الخليفة
لاحظ إضافات كثيرة ، مثل : بعض اللمبات الكهربائية
الجديدة ، ومذياع وتلفزيون ، وقبل أن تدخل راشيل ملت على
أذن الخليفة قائلاً : «احذريا أمير المؤمنين!!» .

- «ماذا تعنى؟» .

- «أية حركة تصدر عنك قد يراها الناس فى الخارج ، وأية
كلمة قد يسمعونها . . .» .

قلب يديه قائلاً: «الحجرة مغلقة، ونوافذها محكمة،
وجدرانها سميكة...».

- «أخشى أن تكون بالحجرة عدسات خفية لنقل الصورة،
وكذلك مكبرات صوت مخبأة هنا أيضاً...».

تتم الخليفة: «هل هم جن سليمان؟».

- «أحدث المخترعات الأمريكية تصل إلى إسرائيل».

وأخذت أشرح ببساطة كيف تعمل آلات التسجيل الصوتي
وكيف تلتقط الصور بطريقة سرية، والخليفة يستمع إلى في
اهتمام، وتتم ضائق النفس: «أشعر أن عالمكم سجن كبير».

ثم استطرده: «على أية حال، ليس لدى ما أخاف من
إعلانه، بل على النقيض مما يتصورون، إنني أريد أن يسمعي
أكبر عدد من الناس، لكن لا شك أن استراق السمع جريمة لا
تُغتفر...».

كان أمير المؤمنين ممدداً في سريره، شاحب الوجه، يشع
من نظراته وملامحه نور غريب، يوحى بالثقة والأمن،
واليقين، وكان يردد من آن لآخر بعض الأدعية الواردة عن
رسول الله، ويتمتم بوضع آيات من القرآن الكريم، ولم تكن
تفوته الصلاة، فقد كان يصلي وهو راقد، وحينما دخلت
«راشيل»، وقد خلعت عن عينيها النظارة السوداء، وضعت

العلبة على منضدة صغيرة، ثم ألقت بنفسها لدى قدمي الخليفة، وأخذت تشهق باكية، أغمض عمر عينيه برهة، ثم قام بحزم: «تستطيعين أن تجلسي بهدوء، وأن تسدلي الشال على وجهك».

وقالت في أسي: «لشدا ما تأملت لما أصابك».

- «هذا قضاء الله يا فتاة. . لعل في ذلك خيراً كبيراً».

قالت: «أثار مرضك موجة عارمة من القلق بين الناس».

رد في دهشة: «لماذا؟ آلاف الناس يمرضون. . بل ويموتون كل يوم. . والمستشفى غاص بالمرضى من كل الألوان، فلمَ القلق من أجلى أنا بالذات؟».

- «لست بشراً عادياً».

عتب قائلاً: «أنا عبد من عبيد الله، أكاد لا أتميز عنهم بشيء».

- «ليس للناس حديث سواك».

هز رأسه مستغرباً: «بدعة جديدة!!».

وتنهَّد في حزن: «. . ولقد قال حبيبي رسول الله، حينما رأى الأعرابي يتفضض أمامه من الخوف والروع: هوّن عليك. . فأننا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة. .».

هزتها الكلمات فأردفت: «تواضعك يسموبك إلى الأعلى...».

- «أنا أكره النفاق، وتزعجني تلك الأحاديث...».

شعرت بما يشبه الخدر يسرى في جسدها، ودار رأسها بموجة عارمة من الرغبة، ومالت نحوه هامسة: «أسمح لي أن أقبلك؟».

دفعها في غلظة، وقد تغير وجهه، لكنها ازدادت منه اقترباً، ولم تفق إلا على صفعة قوية رنت على وجهها: «غادري الحجرة على الفور...».

- «أرحمني...».

- «الرحمة ليست استجابة للأهواء الغاشمة... لقد تلبستك الشياطين...».

وانهمرت دموعها من جديد، كانت تشعر بجرح بالغ، وخيبة أمل كبرى: «أنت تعلم أنني أحبك، وأنى طلقت كل شيء من أجلك».

- «تصرفين بعقل صبية طائشة... لم يزل بيتنا أمد بعيد...».

- «بل أنت أقرب إليّ من أي إنسان في الوجود».

- «أنانية نجسة . . .» .

ثم استطرد: «تترنمين بالحرية، وحينما أمارس حقى فى
الرفض تغضين . . . يجب أن تفهمى لآخر مرة: المرأة والرجل
لا يلتقيان إلا فى ظل نظام سام شرعه الله، وكل ما يحدث بين
رجل وامرأة خارج هذا النطاق فهو عصيان وضلال . . . قومى
وإلا قذفت بك إلى الشارع . . .» .

مدت يديها ضارعة: «ليتك تفعل . . . اضربنى ثانية . . .» .

- «هذا جنون . . .» .

- «عقابك نعيم أشعر فى رحابه أننى أتعبد بالآلام التى
تصبها فوقى يا أعظم من رأيت . . .» .

التفت الخليفة إلى قائلاً: «من أين أتت بهذه الكلمات
الغريبة الجريئة؟ . . .» .

فاقتربت منها ثائراً وهتفت: «تريدين مادة صحفية جديدة
للتشهير بالرجل . . . أليس كذلك؟» .

- «أنت تظلمنى يا رفيق . . .» .

- «إننى أصفعك بالحقيقة المرة، برغم الحراب التى
تحملك . . .» .

قالت وهى تمد يديها فى توسل: «لم أفعل شيئاً من هذا،

«إيلي» الملعون هو الذي شهّر بنا غيرة وحسداً . . أنت تعرف إيلي أيها الرفيق . .» .

تساءل عمر عما أعنى ، فأخبرته بما كتبه الصحف عنه وعنهما ، ولم يخفَ عليه أن المقصود من ذلك هو تشويه سمعته ، والنيل من استقامته ، حتى ينصرف الناس عنه ، فيتبرأ منه العلماء ، ولا تجرى العامة وراءه أو تثق به ، فلوح عمر بيده مغيظاً وقال : «هذه جريمة يعاقب عليها الشرع ، كيف يرمون فتاة مثلها بهذا الادعاء ، وكيف يتهمونني بما لم أرتكبه . إن بين سطور كلماتهم تلميحاً إلى فعل شائن رهيب لا يمكن أن يصدر عني . .» .

أردفت متحدياً : «أتخونين العهد ، وتشاركين في صنع الأكاذيب ؟» .

- «بل فعلها حاقد علىّ وعليك . .» .

صمت عمر برهة ، وبدا على وجهه التفكير والحيرة :
«لعلها مظلومة يا فتى . .» .

- «إنها تلعب بنا وتخدعنا يا أمير المؤمنين . .» .

نظر الخليفة إليها ، وقال وهو يكظم انفعاله : «ديننا يا فتاة يدعو إلى التبين والعدل عند إصدار الحكم ، أنا لا أملك الآن سلطة تفرض عقاب الله ، لكنني أمتلك شيئاً آخر ، وهو أن أرفض السير في موكب الخداع . .» .

أخذت تبكى وتتففض ، ومن بين دموعها تقسم بأنها بريئة ثم تؤكد أنها لن تستطيع أن تعيش بعد اليوم بعيدة عن الخليفة ، هي ستسير وراءه أينما يذهب ، وتعلق بأذيال ثوبه ، برغم كل ما يحدث ، وأنها عند اليأس لن تبقى في الحياة لحظة واحدة فستترك الدنيا بكل من فيها وما فيها ، وتجار إلى الله شاكية ، ويبدو أن قلب الخليفة قد رق لها ، وهذا ما زاد من حنقى ، قال الخليفة : «لماذا تحيينى ؟» .

همست في سرود : «كثيراً ما لا يتبين الإنسان السبب الكامن وراء الحب» .

صاح محتداً : «هذا عمى» .

قالت في نبرة صدق : «أنت تختلف عن الآخرين» .

- «شئ طريف؟ هه!!» .

- «لقد كذبوا.. أنا لا أتسلى بحادث مثير.. صدقنى» .

- «ماذا إذن؟» .

قالت : «أنت رجل صادق مؤمن.. لا تهاب أحداً» .

- «إلا الله..» .

- «أجل.. جئت منزهاً عن كل غاية دنيوية منحطة..» .

قال الخليفة، وهو ينظر إلى سقف الحجرة المضيء ناصع البياض: «أنت تقتربين.. قلبي لا يكذب.. الذين يعشقون الجمال الظاهري وحده سطحيون، والذين يعشقون القوة المادية ويستسلمون لها ضعفاء.. والذين يتعبدون في محراب اللذة الفانية هم مشركون، أو عبدة للأوثان. عندما تعشقين الحق والخير والجمال كوجه من أوجه الكمال الإلهي في خلقه فستكونين مع الرجل الصاعد..».

ثم التفت إليها قائلاً: «أتؤمنين بالله؟».

- «أؤمن به الآن؟».

- «لماذا؟».

- «لأنني رأيت إيمانك ينعكس عليك بالحق والخير والجمال..».

- «أتؤمنين بالأسوة العظمى.. محمد؟».

- «أجل.. لأنك تؤمن به..».

صاح في انفعال: «أنا.. من أكون؟ قولي آمنت به، لأن دعوته حق..».

طأطأت رأسها في استسلام ورددت: «آمنت به لأن دعوته حق..».

- «ولن يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» .

- «أمنت . . .» .

وعاد إلى النظر في السقف الأبيض المضيء : «وللإيمان يا فتاة تكاليف باهظة . . أقلها الموت في سبيل الله . . يجب أن تخلصي إيمانك من الغرض الدنيوى والعرض الزائل . . والخلاص من أهواء النفس ، ومجاهدتها هو الجهاد الأكبر كما قال حبيبى رسول الله . . والحب هنا له صورة جديدة . . المؤمن إن أحب المرء لا يحبه إلا الله ، وإن كرهه لا يكرهه إلا الله . . هذا شيء مهم من صفات المؤمن . .» .

تمتت خافضة رأسها : «أحببتك لله وفى الله . .» .

- «عندئذ تستطيعين أن تعيشى فى جو من السعادة لم يذقه قلبك من قبل ، ويصبح الحب الظاهر عبادة ، وتتحول اللذة البهيمية إلى علاقة إنسانية نظيفة ، مليئة بكل المتع ، واسمها الزواج . . وتسمى العبادة التى تلبسها سترًا وكرامة ، وترين المنحرفين العراة قطيعًا من الحيوانات الضالة ، أبعد ما يكونون عن نوع الإنسان الذى كرمه الله . . قولى معى يا راشيل : أشهد ألا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . .» .

هكذا تكلم عمر، كنت لا أستطيع أن أصدق ما تقع عليه عيناى، أو تسمعه أذنائى، وراشيل ترتل الشهاداتتين فى صدق لا شك فيه، ورأيت الرضى والفرح يكللان وجه أمير المؤمنين، غير أنى تأملت فى اليوم التالى أشد الألم، فقد التقطت الصحف نبأ إسلام راشيل، وأبرزته فى صدر صفحاتها، وكتب أحد المعلقين الصحفيين قائلاً: «إن هذا الرجل الدعى يحمل بذور الفساد والتمرد لأجيالنا التى ولدت فى غمار النار والدم والعناء الطويل، هو فتنة خطيرة يجب استئصالها قبل أن يفلت الزمام، وأقترح على الحاكم العسكرى العام طرده من القدس فور شفائه، لم يعد يخالجنى أدنى شك فى أن الرجل دسيسة هدفها تحطيم دولتنا الفتية من الداخل، بعد أن عجز الأعداء عن تحطيمها من الخارج.. لسوف يؤلب علينا المسلمين، ويفتن غير المسلمين من المسيحيين واليهود.. إن له قدرة خارقة فى التأثير على ضحاياه.. فهو يستغل الفراغ الروحى، ويملا عقول الناشئة بالخرافات الجذابة».

وأصدر الحاخام قراراً بطرد راشيل من جنة إسرائيل الروحية، وأوصى بحرمانها من بعض الحقوق المدنية.

لكن أحد علماء المسلمين الرسميين ضحك ملء شذقيه وقال: «إنك لا تهدى من أحببت، ولكن الله يهدى من يشاء.. أنا عشت طول حياتى مؤلفاً للكتب، وخطيباً بارعاً،

وملقياً للمحاضرات فلم يسلم على يدى فرد واحد . . . الله فى ذلك حكم . . .»

وتسابت المدارس والجامعات والأندية الثقافية والرياضية والمكتبات العامة، وبعض الأحزاب الصغيرة فى توجيه الدعوة إلى الخليفة لعقد ندوات عامة يشترك فيها كبار المفكرين والجمهور أيضاً، يدار النقاش عن مختلف القضايا والموضوعات الدينية خاصة، والفكرية عامة . . . وهناك وراء الكواليس حيث التكتم والصمت والتحركات الخفية، كانت راشيل تعاني من أمر عاجل ملح، فقد استدعاها مدير المخابرات إلى مكتبه فى مساء اليوم التالى، وناقش معها التسجيل الصوتى لكل ما دار فى حجرة الخليفة: «وأخيراً إما أن تكونى ممثلة بارعة، أنتقت دورها على الوجه الأكمل، وإما أن يكون الرجل قد خدعك، وأقنعك بترهاته . . . أردت اصطیاده فاصطادك . . .»

أخذت راشيل تفهقه فى توتر وتقول: «حتى أنت تراودك الشكوك؟ إنه لم يلمس جسدى حتى الآن إلا بعصاه وصفعاته . . . بينى وبينه آلاف الأميال . . . لا بد أن يقصر الطريق، وتزول العقبات حتى نبلغ مآربنا . . . وذلك عن طريق الثقة التى أنالها لديه . . . إننى أعرف كيف أؤدى واجبى من أجل إسرائيل الكبرى . . . وراشيل مستحيل أن تخون كفاح

الأجيال الطويل من أجل صهيون . . أمير المؤمنين يظن أنه امتلكني . . أنا التي ستمتلكه . . عندئذ تتعري الأكذوبة الكبرى، ويسفر وجه الحقيقة . . ».

كان وجهها ينطلق بشراً وهي ترفع يدها وتهتف : «عاشت إسرائيل الكبرى . . الموت للمسلمين».

قال مدير المخابرات، وقد بانت مسحة من الاطمئنان على وجهه : «ما رأيك في الرجل ؟».

- «شخصية قوية واعية جذابة».

- «أعنى ماذا تظنين وراءه؟».

- «آه . . لم أتبين هدفه الحقيقي بعد . . يزعم أنه إلى الله وحده، ويريد أن يعود بالناس إلى الإسلام ومبادئه من جديد، ففيه السعادة والخلاص . . وأنا أرى أن البطش به حماقة؛ لأنه لن يفض الغموض المحيط بالرجل . . ولا خوف من دعوته فستدروها الرياح كما حدث لكثير من الدعوات قبل . . علينا بالصبر . . ذلك هو الطريق الوحيد لكشف مخططة الغامض . . ».

ثم ابتلعت ريقها قائلة : «لكن يجب أن تبعدوا «إيلي» عن طريقي، وإلا أتلغ كل شيء، إن الغيرة قد تدفعه إلى ارتكاب حماقة، فنخسر الكثير . . ».

همس مدير المخابرات : «اطمئني من هذه الناحية، نحن نراقب كل شيء، لو رأينا من الضروري اعتقال «إيلي» لاعتقلناه على الفور. لن نسمح لأي فرد مهما كانت مكانته أن يعوق مسيرتنا...».

لم تكن «راشيل» تجد راحتها في بيتها، أجراس التليفون تدق باستمرار، المخبرون الصحفيون يحاصرونها ويلاحقونها أينما ذهبت، ونظرات المارة الذين يعرفونها، تربك تحركاتها، وتثقل على قلبها، الباعة يعطونها ما تريد دون مقابل، شركات الدعاية يرسلون إليها بالكثير من الهدايا، وبعضهم يريد أن يستغل صورتها في الإعلانات مقابل مكافأة سخية، وقالت راشيل لأبيها شاكية: «هؤلاء الصحفيون شيء رهيب مقيت».

غمز الأب بعينه اليسرى قائلاً: «تستطيعين أن تستغلي الموقف».

- «كيف؟».

- «لا تعطيهم شيئاً إلا بشفته...».

- «لكني لا أريد».

قال غاضباً: «سيكتبون من محض خيالهم...».

وتدخلت أمها قائلة: «أرى أن تكتب راشيل مذكراتها،

وتبيعها لكبريات الصحف ؛ وبذلك تجني من ورائها ربحاً كثيراً . . . » .

قالت راشيل : « لكن إيلى سيغضب . . . » .

صاح أبوها : « فليذهب إلى الجحيم . . . » .

- « ألم توافق على زواجي منه ، وتلح في ذلك . . . » .

قال مستنكراً : « أنا ؟ لا أذكر ذلك » .

التفتت راشيل إلى أمها مستشهدة ، فقالت الأم : « لم يعد «إيلى» مناسباً . . . يستطيع أن يجد عشرات غيرك . . . » .

- « ومستقبله العظيم ؟ ! ونفوذه الكبير ؟ ! وجماله ؟ ! هل نسيت أنت الأخرى يا أماه ؟ ! » .

زمجرت أمها قائلة : « باختصار ، لم يعد «إيلى» جديراً بك . . . فكرى الآن في موضوع كتابة المذكرات ، ستدر علينا دخلاً كبيراً عاجلاً . . . كونى عاقلة وانتهزى الفرصة التي قد لا تتكرر . . . » .

قالت راشيل بحزم : « أنا لا أفكر في شيء من هذا القبيل الآن » .

أمسك أبوها بذراعيها ولواهما في عنف قائلاً : « أتريدين ضياع الفرصة الذهبية يا حمقاء ؟ » .

وسددت أمها نظرات غاضبة قاسية ، وفكرت راشيل ماذا تقول . . المخبرات يريدون امتصاصها ، وعائلتها تهدف إلى استغلالها ، وإيلي يشتهي جسدها كحيوان مفترس ، والصحافة تؤرق عليها حياتها بغية إمتاع الجماهير ، ورفع نسخ التوزيع ، العالم أناثي جشع يبدو كسوق كبرى للعبيد . . بورصة للمضاربات . . إنه لشيء مؤلم . .

همست في دهاء : «انتظرا . . لسوف أتدبر الأمر بطريقة تسركما» .

قال أبوها : «قبل أن تفوت الفرصة . . إن شفتنا حقيرة لا تليق . والشارع الذي نعيش فيه ضيق مزدحم باليهود الشرقيين الأقدار . . إنني أحلم بحى راق . . وبيت فخم . . تحوطه حديقة وأزهار . . ورصيد ضخم بالبنك . . ومشروعات تجارية كبرى . .» .

ونظرت أمها عبر النافذة المفتوحة ، وقد رفعت عنها الستائر حائلة اللون وقالت : «عندما تكتبين مذكراتك يا راشيل ، فستلقفها الصحف ، ولسوف تلهث وراءك دور النشر ، ومؤسسات السينما والمسرح . . ودور الترجمة إلى اللغات الأجنبية . . سيرفع اسمك إلى عنان السماء ، وستكونين أشهر امرأة في أيامنا هذه . .» .

ثم توقفت أمها عن الحديث فجأة وقالت: «ألا تستطيعين الزواج منه، ولو لمدة قصيرة؟ لو أمكن ذلك لبلغت شأواً عظيماً، ولدرجنا على بساط من ذهب...».

وهز الأب رأسه قائلاً: «هذه الخرافة يجب أن تعيش... ذلك الرجل كثر ثمين...».

قالت راشيل وهي شاردة: «الكارثة أنه لا يشعر بوجودي كامرأة...».

قالت الأم: «صبراً يا ابنتي، لا تتلهفي عليه أكثر من اللازم، ازهدى فيه يأت راکعاً متوسلاً، ويلح في طلبك...».

قالت راشيل: «أو تظنين أن هذا الأسلوب قد يفلح معه؟».

- «بالتأكيد... إنه رجل...».

- «أعرف... لكنه نوع فريد...».

- «جربى يا فتاتى... لن تخسرى شيئاً...».

همست راشيل في سرود: «ألم تجربى الوقوف لدى أقدام جبل عال هامته تعانق السحب البعيدة؟! ألم تفكرى فى صعود ذلك الجبل ثانية؟! إنه شيء فوق التصور والخيال!!».

قال أبوها ساخرًا: «إن طائرة «هليكوبتر» تنقلك إلى القمة في لحظات لكنك لا تبحثين عن وسيلة . . » .

بادلته راشيل سخرية بسخرية وقالت: «إن كل المقاييس العسكرية والتكنولوجية هنا تفشل تمامًا . . عمر لن أصل إليه بهذا الأسلوب، ولو امتطيت متن صاروخ ذريًا . . ذاك عالم آخر لا تعرفون طبيعته» .

وتشاءبت وهي جالسة على المقعد، ثم راحت في سبات عميق، على الرغم من أن أمها وأباها مازالا يثرثران . .



الفصل الثانى عشر

زادت الهموم، وطفح الكيل، وأخبار الخليفة تقيم الدنيا وتقعدها، ولا أدرى كيف ستتصرف قوات الاحتلال إزاءه، ولا كيف يواجه عمر خبث هذا العالم ودهاءه، وهو الرجل الطيب، شجاع القلب، وأخذت أتصل بمن أثق فيهم من المعارف والأصدقاء، وأناقش الأمر معهم، كان بعضهم يرى أن انسحب من هذا الضجيج كلية، حتى أوفر على نفسى المتاعب، وكان البعض ينصح بأن ندبر وسيلة هرب محبوبة للخليفة، كى يدخل إلى بلد عربى أو إسلامى، فهناك قد يجد التربة الخصبة لدعوته، والمناخ الملائم لأفكاره، والحفاظ على حياته!! وبعض الأصدقاء كانوا يعجبون؛ لماذا أتى عمر بن الخطاب بالذات إلى القدس، وهى تحت الحكم الإسرائيلى، وتغص بالمشاكل والاضطرابات المحزنة؟!!

ورأيت أن أزور أحد علماء المسلمين الرسميين فى بيته كى أتدارس معه الأمر، فقد يكون ما نشرته الصحف على لسانه

مدسوساً عليه، وأحطت زيارتي بالكتمان، وحينما رأني الرجل رحب بي، وأخذ يسألني عن كل شيء يتعلق بالخليفة، لكنني لم أخطئ الفتور والخوف اللذين خالطا كلماته وتصرفاته، لقد شرحت له القصة منذ بدايتها حتى اللحظة، وفي النهاية قلت له: «أخاف أن يروح الخليفة ضحية مكيدة يهودية».

ورد الشيخ قائلاً: «إن كان مؤيداً من الله، فلن يصيبه أذى، ولو اجتمع أهل السماء والأرض، إنسهم وجنهم، على أن يضروه بشيء لن يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه...».

ولاحظت في كلماته قدراً من السخرية، فقلت: «هذا موقف سلبي لا يليق... كان الرسول مؤيداً من الله، لكنه كان يتخذ لكل أمر عدته... في السلم أو الحرب...».

صاح في وجهي محتدماً: «ماذا تريد مني؟ أأذهب إلى رجل مجهول الهوية، وأقبل يديه ورجليه كما يفعل الغوغاء؟ وماذا سيكون موقفى أمام السلطات الإسرائيلية؟ سيهتموننى بالمشاركة فى تدبير مؤامرة مع الوافد الغامض لخلق القلاقل، وأنا هنا مسئول عن أسرتى وأولادى وأموالى...».

إن مصلحتكم هنا، ومصلحة الدين تقتضى أن يعود عمر من حيث أتى...».

قلت ذاهلاً: «أنت تناقش الأمر بطريقة غريبة...».

- «بل واقعية...».

- «لقد جاء يردد كلمات الله... جاء يدعو النيام...».

والمنحرفين... ويحارب الجاهلية الجديدة...».

اكفهر وجه الشيخ وقال: «ونحن؟ إننا نحمل الرسالة، ونفسر القرآن، ونفقه الناس بدينهم... أيمن أن يضيف أي إنسان شيئاً جديداً...؟! الجاهلية قضى عليها محمد... ولن تعود».

ماذا أقول للشيخ؟! أقول له إن عمر يتكلم بأسلوب غير أسلوبكم، وإن كلماته ومشاعره وسلوكه وحدة واحدة، وإن يقينه تتولد منه قوة ساحرة تمتلك زمام التغيير والبعث، وإن عالمه برىء من الخوف والشرك والنفاق واليأس، وإن واقع المسلمين اليوم يعطى الدليل على فشل هذا الشيخ وأمثاله، ويؤكد ملامح جاهلية من نوع خبيث، يتوارى في العلم والتقدم المادى، وغلبة الفكر المعاصر بحيله وهو واجسه وخداعه؟ لكنى أريد أن أتذرع بالصبر، فقد أستطيع أن أجمع بين الشيخ والخليفة لعلنا نصل إلى حلٍّ مرضٍ فقلت ضارعاً: «ما رأيك لو التقيت به؟».

- «أنا؟!».

قالها في استغراب، فقلت: «وماذا في ذلك؟!».

- «أنا أشك في القضية من أساسها . . .» .

- «تعال . . . وتحقق . . .» .

- «ليس هناك ضرورة . . .» .

لم أستطع أن أكبح غضبي فقلت : «رجل من الصفوة، جاء ليقول كلمته، فترفض سماعها؟!» .

والله لو طلبوا منك أن تخرج لاستقبال وزير الحرب الإسرائيلي، للبست أفخر الثياب، ولهرولت إلى مكان اللقاء، وعلى ثغرك ابتسامة عريضة، ولبقيت الساعات تستمع إلى كلماته، وتهز رأسك شاكرًا . . .» .

كاد يحرقني بنظراته، لكنه تمالك أعصابه وهتف : «أنت غر ساذج، لو وضعت يدي في يد الرجل، لفقدت الأرض التي أقف عليها لأدافع عن دينكم وأعراضكم، ولو اتضح أن عمر لا وجود له اليوم، لخسرنا وخسر الإسلام الكثير . . . لقد أحطت بعلوم الدين، ولست في حاجة إلى المزيد . . .» .

لوحث بيدي في غيظ وصحت : «الدين ليس مجموعة من الكتب تحفظونها عن ظهر قلب . . . نحن موتى . . . لقد خسرنا كل شيء . . . الدين والدنيا . . . والملايين من ركعت في ذلة تستجدي انسحاب الدولة الصغيرة . . . برغم إحاطتنا بجميع

علوم الدين . . إن التجربة أقوى صفة على وجه ادعاء اتنا
وغرورنا . . أنتم موظفون . . أذئاب ولستم علماء دين . . » .

أشار الشيخ بسبابته المرتجفة صوب الباب قائلاً: «إذا لم
تخرج فأسألكم الشرطة . . » .

نظرت إلى وجهه المحتقن المكتنز، وشرور الغضب التي
تتطاير من عينيه، وصدره الذي يعلو ويهبط، وقلت: «أتؤمن
بالله؟! » .

ظلت سبابته المرتجفة تشير على الباب، دون أن ينطق،
فأستطردت: «إذا كنت مؤمناً به، فيجب أن تؤمن بقدرته . . » .

لكن الوجه المكتنز ظل يرشقني بالنظرات الحادة .

- «وليس بمستبعد أن يبعث الله بعمر . . » .

وهممت بالخروج وأنا أقول: «تتخلفون دائماً . . تركيبون
ذيل الموكب . . وتلبسون أى شعار جديد ثياباً مهلهلة تسمونها
الدين . . وتجيدون التأويل الكاذب لتجتلبوا رضى الحكام . .
فى ذيل الموكب دائماً . . لكن العامة فى الشوارع
سيستهجنون . . سيتلقفون الحقيقة، ويتشربون رحيقها دون
حذقة . . ولن يهابوا الموت . . وإن ظهور عمر خطر على
إسرائيل، لكنه أشد خطراً على دنياكم المليئة بالكذب والخوف
والنفاق . . ولهذا تكرهون ظهوره . . » .

وعندما بلغت الباب سمعته يزمر في غضب عاصف : «إن مدافع الإسرائيليين تستطيع أن تكنس هذه الجماهير في خمس دقائق، وتكنس معها الخرافات، لسنا في حاجة إلى عمر جديد . . لكننا في حاجة إلى صفقة من السلاح . .».

قلت وأنا أغلق الباب بيني وبينه : «كان لدينا السلاح . . تركناه مكسًا في الميادين . . أنسيت؟» ضايقتني كلماته : «الأسلحة وحدها لا تغني، والرجال المدربون لن يغيروا إلا إذا عمرت قلوبهم مبادئ، نهتم بالسلاح أكثر من اهتمامنا بحامل السلاح، ماذا أقول؟».

وأخذت أسير في الطريق العام، وكأنتي أخوض كابوسًا مزعجًا، وفتحت عيني لأرى الدكتور عبد الوهاب السعداوي يشتري بعض الصحف، وعلمت منه أنه منكب من جديد على دراسة تاريخ الخليفة، وقال : إن هناك أشياء مهمة يريد أن يسأله عنها، فلماذا اختلف مع خالد بن الوليد وعزله؟ وكيف اعترض على صلح الحديبية برغم إقرار الرسول له؟ والملابس التي أحاطت باغتياله؟ . . إلخ.

قلت : «يا دكتور؛ هذه أمور ثانوية . . المهم أمن الخليفة الآن والحفاظ عليه، وتمكينه من تأدية واجبه . . الناس في هرج

ومرج . . الإسرائيليون لا شك يدبرون مؤامرة . . وراشيل هذه لا أثق فيها . . يجب ألا تسبقنا الأحداث . . » .

قال عبد الوهاب في ثقة : «عمر يعرف ما يجب عمله» .

- «ليس له سابق معرفة بما جد من حيل خبيثة . . » .

- «لا يا صديقي . . المؤمن يرى بنور الله . . ولقد جاء عمر لا لنحميه ، ولا ليقود جيشاً ، ويدبر هجوماً عسكرياً خاطئاً . . جاء ليرشدنا ففسير على هدى الله . . جاء كالصدمة الكهربائية التي تهز رأس المريض وجسده فيتفض . . ثم يفيق وقد زاله الروع والداء . . كصفارة الأمان التي تهيب بالناس أن يخرجوا من ظلمات الخنادق والكهوف إلى الحياة والنور . . إن دورنا ينصب الآن على استيعاب كلماته . . وبعدها نخوض الانتفاضة الكبرى ، ونجابه الزيف والاستسلام . . جهاداً في سبيل الله . . » .

لشد ما تريحني كلمات عبد الوهاب ، وتبعث في قلبي قدراً كبيراً من الطمأنينة والأمل ، وهمست : «ألدك أدنى شك في أنه عمر . . » .

أشرقت ملامحه بالسعادة واليقين ، وقال : «استجاب له عقلي وقلبي . . إيمانه أقوى من أى شك ، علمه عالم فسيح رائع . . إن لم يكن عمر بالجسد . فهو عمر قلباً وروحاً وفكراً

وسلوگًا . . الإنسان ليس من دم وعظم ولحم، فهذا هو التركيب الحيواني فيه، ويشترك فيه جميع الناس . . إنما يتمايز الإنسان عن الإنسان بالعقل والروح والسلوك . . أتفهمني؟ هو عمر وما خالجنى قط أية ريبة فيه . . ».

تنهدت في حسرة، ثم شرحت ما حدث بيني وبين ذلك الشيخ، وقلت: «ليت شيخ المسلمين يفهم هذا الفهم».

أخذ عبد الوهاب يحرك رأسه يمنة ويسرة ويقول: « . . ومضت دعوة الرسول في الطريق الطويل . . لم يعقها حقد أبى جهل ولا عداء أبى سفيان . . ولم ينل من قوتها إرجاف المنافقين، وادعاءات أحبار اليهود، ومضى عمر وبلال وسلمان وصهيب . . ومثات من خلق الله الفقراء أو العبيد . . وصنعوا بعون الله أعظم حدث في تاريخ الإنسان . . يا عبدى أطعنى تكن ربانياً، تقول للشيء: كن، فيكون . . ».

لست أدري من أين أتى الدكتور «وهيب عبد الله»، فقد داهمنا من الخلف، ووضع يداً على كتفى، وأخرى على كتف الدكتور عبد الوهاب، ثم قال ساخراً: «بكل تأكيد، نتحدثان حديث خرافة».

- «كل ماركسى زنديق ورب الكعبة . . ».

هكذا تكلم عبد الوهاب، فقال وهيب بازدراء: «أغرقتم

الناس في هوس جديد . . لا بأس . . إنه نوع من المخدر لتسكن آلامنا . . لا شك أنه شيء طريف، وتراودني فكرة أطرف، ما رأيكم لو عرضنا فلسفة ماركس وإنجلز ولينين على أمير المؤمنين، يبدو لي أن الرجل واسع الأفق، وقد تجد الفلسفة قبولاً لديه . سيكون ذلك - لو حدث - ضربة موجهة إلى صميم اليمين . . » .

دفعه عبد الوهاب في صدره حائقاً: «هذر سخيف، أنت تفتقد الكثير من اللياقة والأدب». هز وهيب رأسه وكتفيه قائلاً: «هذا رأيي . . الرجل لا يرفض مناقشة أي شيء . . » .

والتفت إلى وهيب قائلاً: «كيف أصبح الناس في روسيا ماركسيين؟» .

قال بهدوء: «تطور تاريخي حتمي . . » .

- «كان التطور الحتمي حسبما ظن ماركس سيبدأ في مجتمع الصناعات في أوروبا، لكن ذلك لم يحدث . . » .

- «هذه مسألة فرعية . . » .

- «فلأصحح لك . . فئة قليلة من حملة السلاح، خدعت كل الجهات، واستغلت سخط الجماهير وبؤسها، وأغرقت الناس في بحار من الدم، وحكموا بالرعب، وساقوا الناس إلى فلسفة دموية حتف أنوفهم . يستطيع أي طاغية يملك القوة

أن يفعل نفس الفعل ، ولو كان على النقيض من ماركس . هذا يحدث دائماً في كل حقبة التاريخ . . » .

ابتسم وهيب في خبث وقال : « كيف تتكلم هكذا عن جيل الطليعة الثورية ، رجيل الصفوة . . إنهم طائفة من المثقفين الأذكياء المخلصين ، سبقوا عصرهم ، ووثبوا بالتاريخ وثبة كبرى إلى عالم اليوم . . هذه الوثبة حطمت في انطلاقتها العظمى بعض الرءوس العفنة . . لا شيء في ذلك . . » .

ثم استطرده ساخراً : « الطريق إلى الفروفس محفوف بالمكاره . . » .

قلت : « لو بلغت اللجنة على أشلاء ملايين القتلى لكنت . . » .

قاطعني وهيب ضاحكاً : « وحشاً كاسراً . . مجرمًا . . أعرف . . » .

ثم استمر يتحدث في هدوء غريب : « لو سألتهموني رأيي لقلت يجب أن يُشنق هذا الرجل في ميدان عام ، بأيدي العرب أنفسهم » فأمسكت بذراعه قائلاً : « ألم تقل بالأمس إن عمر كان في صف الجماهير الكادحة . . » .

- « لقد أدى دوره ، ولكل عصر رجال وقيم . . » .

قلت مستفسراً: «ماذا تعنى بالتقدمية يا وهيب؟».

قال وهو يبتسم: «العلم .. أولاً .. معناه رفض للمسلمات القديمة، والمبادئ الانهزامية الرثة .. ثم الطعام لكل جائع .. العمل لكل عاطل .. القضاء على كل ألوان الاستغلال والخداع كي توجد الحرية الحقيقية .. والإيمان بالواقع. قلت: «وماذا قال عمر؟».

أسرع عبد الوهاب قائلاً: «.. كان حاكماً ما أنجبت البشرية على مثاله في العدل والعفة والرحمة، واحترام العقل .. نزل الوحي مرات يؤكد صحة رأيه .. لبس رداء واحداً .. اشتمل ببردة رخيصة خشنة .. وكان يملك غنائم أكبر دولتين في العالم المعمور .. وبكى من خشية الله .. وساق ولاته للعدل .. عالج مشاكل عصره كأمر ما يكون الطيب يا طيب .. خاف أن تعثر بغلة في العراق فيحاسبه الله عليها، وطاغوت الكرملين كان يسفك دماء الملايين باسم مصلحة الملايين .. كانوا يرهبون الطاغية وهو مسجى على فراش الموت .. وامرأة واجهت عمر وخطأته .. فتزل على رأيها صغيراً .. يا ابن التقدم والحرية والعلم .. أين نحن من عمر وعصره؟!».

أطرق وهيب صامتاً .. ظل شاردًا بضع لحظات، ثم رفع رأسه وقال في شيء من الارتباك: «لا شك أنه رجل يستحق

الاحترام والدراسة. لكن المشكلة التي لا أجد لها تفسيراً ولا قبولاً، هي أن يُبعث أحد الموتى بعد تلك القرون الطويلة. . .».

خلع عبد الوهاب حذاءه، ثم وقف وقفة وقال: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَأَسْتُعَلِّمُكُمْ يَوْكِيْلَ﴾ (٦٦) لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿[الأنعام: ٦٦-٦٨]. صدق الله العظيم. . .».

وتعجب لشحوب وجه الدكتور وهيب الذي تمت: «كأنما نزلت هذه الآيات موجهة إلى. . .».



الفصل الثالث عشر

استدعى أطباء المستشفى وغيرهم من العاملين لاستجوابهم فى بعض الأمور الخاصة بالمريض المشهور، وكان السؤال الأول: هل لوحظ أى شىء غريب فى بطن المريض أو أحشائه؟ كان السؤال مضحكاً، وكانت الإجابة لا تحتاج إلى تأكيد، ولم تؤدّ إلى أية حيرة، أما السؤال الثانى وهو الأهم فقد كان عن هذيان المريض أثناء إفاقة من التخدير، فرووا الوقائع كما حدثت دون زيادة أو نقص، بل تطوع الدكتور عبد الوهاب وشرح لهم من هو النعمان بن مقرن، ومن هو سعد، اللذان قصدهما الخليفة بالحديث، غير أن ضابط المخابرات سأل فى تهديد:

«هل ذكر اسم أحد الفدائيين أو المنظمات الفدائية؟».

- «لا..».

- «هل جاء على لسانه ذكر لأية بلدة عربية أو إسلامية؟».

- «...» .

أبدى رجل المخابرات الشك في حديثهم، وصرخ: «لا
يمكننى الوقوف مكتوف اليدين أمام مؤامرة تحاك تحت سمعى
وبصرى...» .

قال عبد الوهاب: «قلنا الحق ولا شئ غير الحق» .

وضحك الدكتور وهيب ساخراً وقال: «حتى أنتم تسقطون
ضحية خرافة، رحم الله الشاعر القديم حين قال:

حياة ثم موت ثم بعث

حديث خرافة يا أم عمرو

وقال الجراح المصرى الدكتور محمود العنانى وهو يضغط
على مخارج الحروف: «ليس لدى أى تعليق، أنا هنا لأجيب
بلا أو نعم...» .

أما أنا فقد عزلونى وحدى، واستمر التحقيق مع الأطباء
فترة قصيرة، وعندما خرجوا تهيأت للدخول، وكم كانت
دهشتى حينما وجدت جندين مسلحين يأتیان، ويدفعاننى
دفعاً إلى سيارة مغلقة، تبدو كالزنزانة المظلمة، ثم تنطلق بى
إلى مكان ناء بالقدس الجديدة. إنه معتقل من المعتقلات لم
أحظ بشرف المثل فيه قبل ذلك، ثم قذفوا بى فى حجرة

مظلمة ليس بها فراش ولا ماء . كان هناك دلو صغير في أحد أركانها، يبدو أنه لقضاء الحاجة، وبقيت نهبا للظلام والصمت والانتظار عدة ساعات، مرت كدهر، وعند منتصف الليل أخرجوني من الزنزانة، دفعني السجان بغلظة وجفوة . ثم صفعني على القفا . .

أول القصيدة كفر . . هذا لا يشير بخير على الإطلاق . . ثم رفسني بحذائه الثقيل . . غلت الدماء في عروقي، ثم التفت إليه في غيظ هدر كوحش مفترس: «ألا يعجبك تصرفي» «خذ» ثم صفعني على وجهي، وأعقبها بلكمة قوية سددها إلى فكي الأسفل ترنحت على أثرها . لكنني تماسكت ولم أسقط . . وتمت: «هذا ظلم . .» .

قهقهه في سخرية، ودفعني من الخلف حتى كدت أرتقى على وجهي، فتلقفني رجل آخر، وقال في رقة: «لماذا تقسو عليه هكذا؟» ودُهِشت . . أوجد هنا إنسان يعرف الرقة والعطف، وأخذني على حين غرة بصفعة مباغطة . . وشهقت . . وأتبعها بركبة قوية في بطني . . تهاويت بعدها على الأرض عاجزا، والألم يمزق أحشائي، ورأسي يدور، فجذبني من رباط العنق حتى انطرحت على الأرض تماما، وانقض على كلبان مدربان أخذا ينهشان في جسدي حتى مزقا سروالي، وأسالا دمائي . . والزبانية يضحكون . . ويدللون

الكلاب باسم بعض الزعماء العرب . . وصاح رجل من بعيد :
«أيها الأغبياء كفوا عن هذا العنف . . العقاب لا يصح أن يسبق
التحقيق، دولتنا هي الوحيدة في الشرق التي تعيش في ظل
الحرية والقانون . . وتعامل الناس من كل لون وعقيدة بصدق
وعقل . . لا تسيثوا إلى سمعتنا» .

إنه أحد الضباط الإسرائيليين، هذا الأسلوب أعرفه جيداً،
الكلمات الحلوة تحمل وراءها عذاباً رهيباً . . يأمر بالضرب،
ثم يعتب على من نفذوا أوامره، أو يدعو إلى الرحمة، لكي
تنصب على الأبرياء ألوان القسوة المتناهية . . هكذا الجلادون
في كل مكان . . خدعة ساذجة لا تنطلي إلا على المساكين
والبلهاء . . واقترب الضابط مني، وريت على رأسي في حنان
بالغ، فقلت: «أشعر بظماً شديداً» .

فطلب من السجناء كوب ماء، ثم التفت إلى في هدوء
وقال:

- «لا منجاة لك إلا بالصدق، أنت تعرف ذلك، والعامل
من يوفر على نفسه المتاعب، ويوفر على غيره الجهد الذي لا
مبرر له، سوف ننتزع منك كل ما نريد بأية وسيلة . . هذه
ضرورة لأنه يرتبط بأمنا وسلامة الدولة . . كل العالم يفعل
ذلك . . أتعذري أن تقدم كل ما لديك من معلومات؟» .

قلت ولساني في فمي كقطعة من الخشب: «أعدك، ليس لدى ما أخاف من إذاعته...».

قطب جبينه، وسدد إلى نظرات ذئب جائع، وقال: «فلترو ما حدث من البداية للنهاية، دون أن ننسى شيئاً مهماً كان أو تافهاً، تكلم عن كل شيء... كيف التقيت به؟ ماذا قلت وماذا قال، أى تعليق صدر منه. كيف يأكل... كيف يشرب؟! الشخصيات التي التقى بها... رأيه في مشكلة الشرق الأوسط، وقرار مجلس الأمن... والمفاوضات بين العرب وإسرائيل...».

وأخذت أجيب عن تساؤلاته. لكن الضابط قال: «ورأيه فينا؟».

- «رأيه سيء بالنسبة لكم، وللدول العربية عموماً. العالم كله في نظره يعاني جاهلية سوداء، ويغوص في مستنقع من الإثم والفساد، ويعتوره الزيف والفساد».

ضحك الضابط حت كادت حنجرته تنشق، وقال: «ذلك كلام رجل بليغ يحب الإنشاء... مثل هذا الكلام لا يقلقني ولا يزعجني...».

وأبدت له جهلى التام بالبلد الذي نشأ فيه، وعلاقته بالمنظمات.

- «لكنك صفيه وخليله...».

- «أنا رجل وضعتني الأقدار في طريقه يا حضرة الضابط . . لم أكن أنتظره . . لم نكن على موعد . .» .

اكتسى وجه الضابط بالجد، وقال: «كثرت الأعمال الإرهائية» منذ قدم، وازدادت المظاهرات، فما تفسير ذلك التمرد؟» .

- «لا صلة له إطلاقاً بشيء من هذا» .

- «وما دليلك؟» .

- «أكاد أكون معه بصفة مستمرة» .

- «أليس لديك عمل؟» .

- «فُصلت من وظيفتي بلا سبب . .» .

- «أنت داهية» .

- «لم أخف شيئاً يا حضرة الضابط . .» .

- «أنت تكذب . . لن نعجز عن فض الاختتام . . إننا

قادرين على هتك الستر عن الغيب . .» .

قلت دون وعي: «إنك تتحدى الله . .» .

- «هذا شأنى . . أم تريد أن تحمل إلينا رسالته . .» .

- «أسف . .» .

- «ومخابراتنا تعرف كل شيء.. تعرف توزيع القوات العربية وقواعدهم وسلاحهم وخبراءهم الأجانب.. مستحيل أن يظل هذا اللغز «التافه» على غموضه.. إذا اعترضني سر فلما أن أحل رموزه، أو أحطمه إلى الأبد.. أتفهم كلماتي؟».

قلت وأنا أتلقى: «الظما يكاد يقتلني.. والحر شديد».

أشار إلى رجل قريب، وطلب منه إحضار الماء على وجه السرعة.

- «عمر هذا لا قيمة له، المهم الأيدي الخفية التي تحركه، والمخطط الذي رسموه لنا.. هو مجرد آلة..».

- «وماذا أفعل!!».

- «أنت لم تلقِ أشعة واحدة من الضوء..».

- «إنني أختلف معك يا حضرة الضابط.. كل شيء واضح غاية الوضوح..».

كور قبضته، ولوح بها مهدداً: «أستطيع أن أسحقك كحشرة. مئات مثلك يبتلعهم العدم في سجوننا، ولن يبكي عليهم أحد.. لا معنى للعناد إذا كان سيكلفك حياتك..».

وسعل سعلة مصطنعة، ورأيت وجوهاً ثلاثة مكفهرة، وسياطاً ترتفع ثم تهوى على رأسى وجسدى ووجهي، أخذت

أتلوى وأنا أضع يدي فوق عيني . . وأستغيث . . قال الضابط وهو يهم بمغادرة المكان: «ستظل تحت هذا الويل حتى تنفك عقدة لسانك . . ».

فجريت نحوه وقد أشعلت السياط في جسدي ما يشبه النيران وأمسكت بذراعه قائلاً: «انتظر . . سأقول كل ما تريد».

ابتسم، وعاد إلى مكتبه في الهواء الطلق، والضوء الباهر، وأشار إلى الشياطين الثلاثة، فتراجعوا، وقلت والدموع في عيني: «إما أن أخترع الأحداث، وإما أن تصدقوني . . ».

ضحك ضحكة داعرة وقال: «فلتخترع لنا شيئاً مقنعاً . . ».

أخذت أشد شعري في غيظ وأقول: «لكني لا أستطيع . . أأرمي الخليفة بما هو منه براء؟».

- «حسنًا . . لا تخترع . . قل لنا تصوراتك عن الموضوع بصدق . . ».

قلت دون تلثم: «الرجل هو عمر بن الخطاب، وقد أحياه الله القادر، وجاء لإصلاح ما فسد من أمر المسلمين خاصة والناس عامة . . لم يأت ليدير مؤامرة ضد إسرائيل . . ».

قال الضابط في خبث: «ولماذا لم ينزل إلا في القدس بالذات؟».

- «لأنه زارها في حياته .. وأقام له مسجداً قرب كنيسة القيامة بعد أن رفض الصلاة في الكنيسة احتراماً لحرية العقائد .. لا أدري كيف أفسر الأمر .. هكذا اقتضت مشيئة الله» .

وعاد الضابط إلى ضحكته الداعرة: «كان في الإمكان أن ينزل في سوريا .. العراق .. مصر .. لبنان .. المغرب العربي .. أندونيسيا .. باكستان أم أنه خاف أن يُتهم في أية دولة بالجناسوسية أو التآمر ضد نظام الحكم؟ أليس الأمر مشيراً للدهشة؟» .

قلت: «مثير .. فعلاً ..» .

- «إذن فنحن على حق إذ نشك ..» .

- «وأنا على حق إذ أجهل ..» .

- «تستدرجنني؟ هه» .

قلت: «استبد بي الظماً ..» .

مال نحوي في غيظ: «فلتشرب من خمر الجنة .. هناك لا يصيبكم ظماً ولا مخمصة .. قل لي: مخمصة، ما معناها؟» .

- «الجوع ..» .

- «عفارم ..» .

وانتزع الضابط قداحته وسجائره بعصبية وقال لرجاله :
«خذوه إلى الزنزانة . . لا تعطوه جرعة ماء واحدة .»

وارتميت في زنزانتى ظامئاً متألماً حزيناً، تكاد تخنقنى
الوساوس والهموم، إن دائرة الخطر تضيق حولنا يوماً بعد
يوم، والأيدى القذرة تحاول محاصرة الخليفة، وخنق آماله،
لن تتركه يؤدى رسالته، هذا ما قلته من قبل، لكن أحداً لم
يكثرث لقولى، إنهم يراقبون مرافقيه، ويعرضون صورته فى
جميع الأنحاء، راصدين المكافآت الكبرى لمن يدلى بأية بيانات
تكشف عن شخصيته، لن يكفوا عن العمل والتأمر، ترى ماذا
يفعلون به الآن فى المستشفى؟ وأية مكائد جديدة ينصبونها
حوله؟ لو مزقونى إرباً إرباً ما تخلّيت عنه، إنه فرصة العمر فى
الخلاص الأكبر، هو ما كنت أبحث عنه، يجيب عن أعوص
القضايا دون تلعث، وتفيض كلماته كالنبع الصافى، وتشع
أفكاره ثقة ويقيناً، لو كان معه عشرة آلاف رجل من المخلصين
لاستطاع أن يقف بنا على أعقاب فجر رائع . .



فى اليوم التالى فتح الضابط الزنزانة، ورمى إلى بصحيفة
الصباح، وقال : «انظر ماذا فعل الخليفة الذى أتى لكم بالهداية
والخلاص؟»

دق قلبي ، وارتعشت مفاصلي ، وزاغت نظراتي ، لكنني تماسكت ، وتلقفت الجريدة ، وحاولت أن أجرى على سطورها مستطلعاً ، كانت هناك صورة للخليفة ولراشيل . .

صرخت محتداً : «إنها خدعة سافلة . .» .

- «هذا ما حدث . .» .

- «لا يمكن . . أنا أعرفه ، تلك قصة مختلقة من أساسها هل يعقل أن يتصرف أمير المؤمنين كفتى مراهق ، فيختطف قبلة ، أو يقوم بحركة شائنة ! . أنتم تكذبون . . رأيته يصفعها عندما حاولت الاقتراب منه . . ضربها بعصاه . . كان هذا أمامي ، وبه محضر في الشرطة . . والصورة الموجودة على صدر الصحيفة هي الأخرى خدعة . . تريدون أن تلوثوا سمعة الرجل ، وتحطوا من هيئته . .» .

ثم استطردت في تشفٍّ وعناد : «لن يصدقكم الناس ، هم يعرفونكم . . وأنت تعلم أن ما كُتب هنا كذب في كذب . .» .
قال الضابط في سخرية : «لقد حطم نفسه قبل أن نفكر في تحطيمه . .» .

- «مستحيل . . محاولا تكم قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان باءت بالفشل . . لم تستطيعوا أن تطفئوا نور الله في

قلوبنا . اختطفتم قطعة من الأرض . . من ملايين الأميال
الواسعة في شتى أنحاء الدنيا . . لكن النور باقٍ .

وأخذت أرتل على مسمع منه : « بسم الله الرحمن
الرحيم . . ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا
أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] . صدق الله
العظيم .

ركلني في عنف وقال : « دعوه يلهث كالكلب . . لا تجودوا
عليه بقطرة ماء حتى يلحق أحذيتنا . . إلا إذا اختار نعيم الجنة
ها . . هاها . . » .



الفصل الرابع عشر

اختفت «راشيل»، واختفيت أنا الآخر، وعلمت فيما بعد عن طريق الدكتور عبد الوهاب، أن الخليفة دُهِش لهذا الأمر، وبدأ عليه قلق ظاهر، ومع ذلك فقد ظن أن عذراً طارئاً، أو أمراً مهماً قد شغلنا بعض الوقت، وكان يصرح من أن لآخر أن الأوضاع لا توحى بالثقة، وأنه لا يأمن شر هؤلاء الصهيونيين، لكن عبد الوهاب لم يجد بداً من أن يشرح له سر اختفائي المفاجئ، فقال ممتعضاً: «هذا تصرف شائن من السلطات، هم كذلك من قديم الزمان، إذا مكن لهم الله في الأرض عاثوا فيها فساداً، وأهدروا قيم الآخرين وحررياتهم . . أنا لا أخاف أن أصرح برأى هذا، يجب أن يعرفوه . . المهم كيف نواجه هذا الظلم . . ».

قال عبد الوهاب: «للجدران آذان يا أمير المؤمنين . . ».

تجاهل تعليقي وصاح: «فليتحرك المسلمون في شتى أنحاء الأرض».

- «دون ذلك أهوال وصعاب . . .»

أخذ يتمتم ببضع كلمات من القرآن ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] صدق الله العظيم .

والتفت إلى قائلاً: «الجهاد فرض . . .»

- «أصول السياسة الحديثة يا أمير المؤمنين تقتضي التاني الزائد . . . حتى نكمل العدة ونكتسب تأييد الرأي العام العالمي . . .»

قال في أسى: «الرأي العام!! يا لها من مأساة . . . لقد عرفت . . . لا تنضح المستنقعات إلا بالعفن . . . والجاهلية الضاربة لا تلد إلا أحكاماً متحيزة، ولا تغرس إلا الرذائل . . . دائرة مفرغة . . . أنت تستعد، وعدوك يستعد . . . أنت تحاول اكتساب الرأي العام، وعدوك يفعل الشيء نفسه، النصر الذي ناله يقلب ميزان العدل . . . الحق في جانب الأقوياء . . . استمع إلى جيداً . . . الكفر ملة واحدة . . . ما قامت حرب في الدنيا، إلا وكان أحد الفريقين أقوى عسكرياً من الآخر . . . التفوق العسكري وحده لم يكن العامل الحاسم . . . ما أكثر الذين انتصروا وهم أقل عدداً وعدة . . . لأنهم كانوا أكثر إيماناً . . .»

طأطأ عبد الوهاب رأسه قائلاً: «نحن لا نحارب إسرائيل وحدها. .».

- «أتعنى أنه لا مفر من الانتظار. لقد طال. . ذلك يعنى الهزيمة والموت. . لو اتحد المسلمون جميعاً لهنز هديرهم زبانية الظلم والطغيان. .».

تململ في سريره، واستطرد: «القضية الأولى ليست السلاح والرأى العام».

- «ماذا إذن؟».

- «أن يوجد الفرد المسلم. . ثم الجيش المسلم. . ليس هذا مجرد وجهة نظر شخصية. . إنه بديهية في ظل مبادئ الدين».

ودق جرس التليفون، فأسرع إليه عبد الوهاب، كانت المتحدثة راشيل، وكانت تلح في طلب الخليفة على عجل، لم يرتح عبد الوهاب لذلك، فطلب منها أن تترك الرجل وشأنه، وتنصرف هي إلى شأنها، لقد أحاطت الشكوك بها، ولم يعد المرافقون للخليفة راغبين في الاستمرار بعلاقتهم بها.

- «أستحلفك بالله، الأمر جد مهم».

أمسك الخليفة بالتليفون، وأخذ يستمع إليها: «لا تصدق ما نشرته الصحف».

- «أعلم أن بضاعتهم زيف وكذب».

- «صحف اليوم، أقرأتها؟».

- «لا...».

- حسنًا.. إذا أتوا إليك بصحيفة، فابصق عليها ودسها

بنعالك...».

قال الخليفة في دهشة: «لماذا؟ إنني حريص أن أعرف كل ما
يمكن معرفته، لعلني أبلغ مبلغًا من العلم يساعدني في إصدار
أحكامي...».

- «أرجوك...».

- «وماذا يضيرك».

- «إنهم يهدفون إلى تحطيم ما بيننا من علاقة...».

- «إن العلاقة الأخوية الأصيلة لا تقضى عليها أكاذيب أو
أراجيف...».

ثم وضع السماعة وهو يرقب التليفون بدهشة: «أين راشيل
الآن...».

- «في القدس الجديدة».

- «هذه آلة عجيبة لنقل المسافات... سبحان المنعم...».

﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].. صدق الله العظيم.

لم يعد هناك مفر من أن يسرد عبد الوهاب على أسماع الخليفة ما نشرته الصحف، لا يمكن إخفاء شيء في هذه الأيام، الأنباء الكاذبة وغير الكاذبة تمرح في المجتمع دون عوائق، إنها كالهواء الذي نتنفسه.. عالم فضائحه يرددها الناس كأحلى نشيد، ويصنعون من الأمور التافهة حكايات طويلة يوشونها بالأكاذيب والحيل والمفاجآت حتى تشد الأسماع، وتجلب الإمتاع، شيء كالمخدرات. تشبع القلوب المريضة..

وعول عبد الوهاب على أن يخبر الخليفة بكل شيء.. وبعد أن سمع الخليفة قصة ما نشرته الصحف، ابتسم في مرارة، ثم ضرب كفًا بكف.. وقال: «عجائب..».

- «لا تحزن يا أمير المؤمنين.. نوع آخر من الحرب الخبيثة..».

نظر الخليفة إلى السقف الأبيض المضيء وقال: «أتذكر «حديث الإفك»؟».

- «لقد ورد ذكره في القرآن.. كان عن عائشة أم المؤمنين حينما رماها المنافقون والحاقدون والمخدوعون بالإثم وهي منه براء..».

وهمس الخليفة: «كانت أياماً رهيبة، عانى الرسول بسببها الكثير... إنه النبي... وقائد الأمة، ومثلها الأعلى، والطعن في زوجه بين العرب أمر مهول... لهذا تولت العناية الإلهية الدفاع عن الشرفاء المؤمنين، وأخذ الأثمين بكل شدة...».

- «أجل... كانت جريمة كبرى في حق عائشة».

- «والرسول أولاً... واليوم يأتون بحديث إفك جديد يريدون به هزيمتي وتحطيمي...».

وعاد عمر ينظر إلى السقف ويقول: «أتذكر شاعر اليهود كعب بن الأشرف؟».

- «أذكر... كان يشبب بنساء النبي، ويتنغم بقصائد العهر والافتراء في طول الجزيرة وعرضها...».

- «وكان عقابه الموت...».

- «أتذكر حُي بن أخطب زعيم اليهود».

- «أجل...».

- «أتعلم أنه سجد لأصنام قريش، ليؤكد لهم أن دينهم حق ودين محمد باطل، وهو يهودي صاحب كتاب يعلم يقيناً أن عبادة الأصنام حماقة، واحتقار للعقل البشري...».

- «نعم... أذكر...».

تنهد الخليفة في حسرة: «هم دائماً هكذا. يلجثون إلى أخس الحيل وأدناها، أنا أعرفهم من قديم. المعركة كانت وما زالت عنيفة.. يضرب العدو فيها بمختلف الأسلحة.. حديد.. وخبث وأكاذيب..».

قال عبد الوهاب: «نسميها الحرب النفسية..».

ضحك الخليفة قائلاً: «برعتم في ابتكار الأسماء والمصطلحات..».

وصمت الخليفة برهة ثم قال: «طريقة ماهرة للقتل دون إراقة دم.. حسناً.. لسوف أواجه الناس بالحقيقة، وأتحدى سفالتهم بصدق كلماتي وإيماني.. وأقنعهم بالدليل القاطع..».

همس عبد الوهاب: «راشيل أداة قذرة.. قد تنحاز لهم في أي وقت، فثبت علينا إدانة نحن منها أبرياء..».

- «إنني واثق أنها لن تفعلها..».

- «هي منهم..».

- «لكنها انتسبت لمعنى جديد.. واغتسلت من أحزانها القديمة..».

لم تستطع كلمات الخليفة أن تبدد شكوك عبد الوهاب،

كانت الأحداث تجري، ولم يكن الخليفة يعلم أن السلطات الصهيونية قد أصدرت أوامرها للمستشفى ألا يسمح للمريض بالخروج إذا ما شفى إلا بأمر كتابي، ومن يخالف ذلك يعرض نفسه للضرر..

قال عبد الوهاب: «المستشفى محاصر برجالهم، وأنت سجين الآن...».

- «لا تكثرث.. عندما تخبرني أن الشفاء تم، فسأخرج ولن يستطيع أحد أن يعترضني...».

- «أنت تبسط الأمور، وهذا يزعجني».

- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

- «لكننا نريدك أن تعيش.. أن تبقى...».

- «أمنيات طائشة.. الأمر بيد الله وحده.. وهو العليم الخبير...».

ابتسم الخليفة في سعادة، وقال: «نحن سجناء.. لكن الكلمات تسري بين الناس، فيرددونها ويحفظونها عن ظهر قلب.. وتحدث فيهم تأثيرات عجيبة.. إن الله جنوداً لا ترونهم.. لسوف أخرج بإذن الله في الوقت المناسب...».

- «والى أين تسير . . ؟» .

- «إلى بيت من بيوت الله . . سأعتكف فى أحد المساجد . .
أوربما أبحث عن عمل أرتزق منه . . ليس من مصلحتهم أن
يتخلصوا منى الآن . . إنى أعرف الطريقة التى ينوون
تنفيذها . . هم يعتقدون أننى لا أحمل سلاحًا من حديد،
سلاحى الكلمة التى توقظ النيام، وتحرق الفساد . . هم الآن
يحاولون إثارة الناس ضدى، وتلويث سمعتى . . حتى يكون
القضاء علىَّ بأيدي الذين آمنوا بى، وقبلوا أقدامى . . وذرفوا
الدموع ندمًا . . هم خبثاء يا طبيب . . سلاحى الكلمة
الصادقة . . وسلاحهم الكذب والإفتراء . فلمن يكون
النصر ؟» .

لمعت دمعة فى عينيَّ عبد الوهاب: «سبحان الله . . تلك
كرامة من الكرامات . . أنت تعرف مخططهم جيدًا . .» .

- «سنوات طويلة والرسول يتصدى لألاعيبهم . . كان ﷺ
يفتح عيوننا على نذالتهم وغدرهم . . كان يعرفها قبل أن
تحدث . .» .

وهتف عبد الوهاب: «يا أمير المؤمنين، دع هذه الأرض
ونحن معك، ولننتقل إلى بلاد أخرى نجد فيها الأمان
والحرية . . إنها هجرة . .» .

قال الخليفة: «لم أقرر ذلك بعد...».

ثم التفت إلى باسمًا: «يا طبيب عندما ينزل الوباء بلدًا،
أعالج مرضاه في قلب المعركة... أم تفر - وأنت الطبيب - إلى
أرض بعيدة...».

أخذت أهرز رأسي صامتًا...



الفصل الخامس عشر

تفجر حادث راشيل فى أوساط القدس كالقنبلة شديدة الانفجار، أثار ضجيجاً وغباراً كثيفاً، ونزاعاً لا تخفت حدته، قال فدائى مستتر: راشيل عميلة للمخابرات الصهيونية والمخابرات المركزية الأمريكية، ولقد جُندت لغواية الخليفة وفتنته حتى تعطله عن أداء رسالته، وتضع فى طريقه العراقيل، بتشويه تاريخه ودينه. وقال جندى من مشوهى الحرب: إن حيل الإسرائيليين خبيثة، فقد عمدوا إلى حقن الخليفة بعقار مخدر أو أعطوه عقار الهلوسة (ل. س. د) فأثروا على تفكيره ومشاعره، وقال صحفى مسرح، ومحدث فى الإذاعة قديم رفض التعاون مع الإسرائيليين: «أقسم أن القصة مخترعة من أساسها، ولا صحة لوقائعها إطلاقاً، لقد كتبوها فى عديد من الصحف بنفس الأسلوب، ونفس الترتيب، وكأنها بيان صادر عن جلسة من جلسات المفاوضات...»، وقال واحد من العلماء المسلمين الرسميين:

«ابن آدم خطاء، وأحب الخطائين إلى الله التوابون . . .» أما أحد القساوسة في كنيسة القيامة، فقد علق: «أنا أحترم عمر، ولا أشك في نظافته، إنني لا أتفق معه في العقيدة، لكنه إنسان كبير، رفض طلب البطريق حينما كان بالكنيسة وقت الأذان، أبى أن يصلى بها احتراماً لمشاعرنا، وخرج ليصلى خارجها . . . كان شديداً فى تسامح . . . و كان يعامل المرأة طوال تاريخه بحزم وعدل . . . لم يفكر فى يوم من الأيام أن يبيع آخرته، أو يفرط فى دينه . . . شىء متفق عليه . . . كذب الصحف لا يحتاج لتنفيذ لكل ذى عينين . . .»

وعلمت فيما بعد أن مدير المخابرات استدعى راشيل قبل أن تشرع الصحف فى نشر مبادئها، وأفهمها أن المخابرات تنوى توجيه ضربة قاصمة لسمعة الخليفة، وشرح لها ما سوف تنشره الصحف عن واقعة الاعتداء المفتعلة. فصاحت محتجة:

«إننى أرفض هذا التصرف».

- «لماذا؟!».

- «لأنه يتلف كل شىء فى مخططنا».

ابتسم فى مكر وقال: «ليس لك حق الاعتراض. إن «أدمغة كبيرة» تفكر فى الأمر، وقد أقرت هذه السياسة، . . . وليس لنا حق تنفيذها . . . ما عليك إلا التنفيذ يا راشيل . . .»

صرخت مهتاجة: «أنا لست آلة . . ».

- «أنت جندي في المعركة . . ».

- «هذا لعب بالألفاظ . . ».

- «أنت يا راشيل حلقة في جهاز منظم دقيق . . وأنا كذلك

السياسة العليا للدولة وهي التي تهيمن علينا جميعاً . . ».

قالت وهي تجمع أشياء وتهتم بالوقوف: «إنى

أنسحب . . ».

وثب نحوها، ثم أمسك بيدها، وأجلسها في لطف

مفتعل: «هل جننت؟».

- «أنا لا أودى عملاً كهذا . . لا أستطيع . . ».

قهقهه ساخرًا: «راشيل . . إننى أعرفك . . أتحاولين اللعب

بأعصابنا!!».

ثم تنهد قائلاً: «كل ما نطلبه منك هو أن تدلى بتصريحات

للصحف والإذاعة والتلفزيون تؤكدين فيها الواقعة».

صرخت محتدة: «لن أفعل».

- «هذا تصرف غريب . . أنت مغرورة أم مخدوعة؟ ومع

ذلك فإنه يمكننا الاستغناء عنك نهائياً . . لسوف نكتب

للصحف تصريحات متحلة ونعزوها إليك . . ».

هتفت : «هذه خسة . .» .

- «إنها الحرب يا فتاة . . تذكرى شقاء السنين الطويلة» .

- «سوف أعلن الحقيقة على الملأ ، وأكشف كذبكم» .

- «عبثًا تفكرين . . ستكونين محددة الإقامة . حولك الحراس . .» .

أخذت راشيل تسب وتلعن ، وتضرب بقبضتها الواهنة صدر الضابط الكبير ، وتعلن احتقارها واشمئزازها ، والضابط يتسم في برود غريب ، ثم يلوى ذراعها ، ويجلسها مرة ثانية على المقعد ، ويقول بهدوئه المثير : «تلك بداية الخلاص منه . . لسوف نتبعها بخطوات أخرى . . هل يخطر ببالك أننا سنشيع عنه أنه «عميل صهيوني» يخدم أهدافنا المشتركة مع أمريكا!! ولك أن تقدرى رد الفعل العنيف بين العرب والمسلمين قاطبة . . سيكون ذلك قبلة الموسم . . ولكى نجبك الخطأ ، فسوف نغرقه بالهدايا والاحترام ، وسيقوم أحد كبارنا بزيارته سرًا ، لكن الزيارة السرية سيعرفها الناس بطريقتنا الخاصة . كى تكون أشد إثارة وتأثيراً . .» .

هدرت : «وقاحة» .

ضحك وأردف : «ولسوف ننشر تصريحات محرقة على لسانه تتعلق بالدين والسياسة ، سنجعله داعية للسلام بين

العرب وإسرائيل ، ولسوف يكذب بنفسه القصة التاريخية القديمة ألا وهي طرد اليهود من الجزيرة العربية ، لتناسب جو الصلح المنشود . . الأخطر من هذا كله . . إعلانه عن أن «المصحف» المطبوع في إسرائيل ، الذي حاربه المسلمون لما فيه من تحريف ، إعلانه أن هذا المصحف هو أصح النسخ وأدقها . . ما رأيك ؟» .

قالت راشيل وجسدها يرتجف كله : «هذه المبالغات والأكاذيب ، ستشئ بخبثكم . .» .

- «هذا رسم خبراء مدرين يا بلهاء . . هذا علم . . اشترك في إخراجه فلاسفة . . وعلماء نفس . . ومخابرات . . وأخبار . .» .

ثم ضيق عينيه ونظر إلى راشيل في غضب : «لكن لماذا تدافعين عن الرجل بكل هذه الحماسة والحرارة . .» .
- «لأنه مظلوم . .» .

- «لكنه خطر يتهددنا . .» .

- «أوقفوا الخطر بإجراء قانوني أو أخلاقي . .» .

- «الأخلاق تفسد السياسة . . والقانون بطل متروك . .» .

نحن في حرب يا راشيل . .» .

- «يا لفجر كم . . .»

ضحك ساخراً: «أنت تحلمين بليلة بين ذراعيه . . .»

- «لقد تطهرت من رغباتي الآثمة . . .»

- «مستحيل . . أنت امرأة . . .»

- «اللعنة عليكم جميعاً . . .»

نفخ في ملل وازدراء ثم قال: «فكرى في الأمر . . أنت أملنا الأكبر في التنفيذ، لقد بذلنا جهداً أكبر في صنعك وإعدادك . إذا خسرتناك خسرتنا الكثير . . تذكرى أن إخوة لك يموتون في ميدان القتال كل يوم من أجل أجيالنا . . وحيث يموتون لا توجد أخلاق أو قوانين . . يوجدون بدمائهم، وتأين أنت أن تجردى بوضع كلمات . . الكلمات في مواجهة الدم لا شىء . . .»

وساد الصمت، كانت راشيل تفكر، إنها لا تريد أن تبتعد عن الخليفة، وفي الوقت نفسه تريد حمايته، فلم لا تعامل أبناء جلدتها بنفس الأسلوب الذى يعاملون به الآخرين؟ إن لتصرفها هذا ما يبرره . . قال لها الخليفة ذات مرة: شرف الأسلوب مرتبط بشرف الغاية . الغايات العظمى لا يبلغها الشرفاء إلا بالوسائل الطاهرة . . معذرة يا خليفة . عدوى يحمل مدفعاً رشاشاً، ولن أستطيع مواجهته بصفعة هزيلة . .

سأواجهه بنفس سلاحه . . لا مفر . . وسددت راشيل إلى رجل المخابرات نظرات لعوب مدرية وقالت : «وكم ستدفعون لى؟» .

- «ما يوازي مرتب أسرتك كلها عشر سنوات . .» .

- «والمقدم؟» .

- «خمسة وعشرون بالمائة» .

- «على شرط . .» .

- «طوع أمرك يا راشيل . . يا نجمة المجتمع الإسرائيلي .!» .

قالت وهي تخفض رأسها في حيرة : «لن أصرح بشيء لأى صحفي . .» .

- «لا تقلقى . . ستتولى أمر الصحف . .» .

- «والآن دعنى أذهب إليه . .» .

- «حذار أن تكذبنى ما نشره . .» .

- «لن ألتقى بأى صحفي . . أريد أن أذهب إلى الخليفة . .» .

أخبرها بأن تؤجل ذلك إلى حين ، ثم اصطحبها معه إلى المعتقل الذى أنزل به فى اليوم التالى ، ويبدو أن المخابرات قد

رأت أنه من الصالح إطلاق سراحى، كى أعود للملازمة الخليفة، خاصة أنهم لم يجدوا لدى جديداً برغم ما بذلوه من جهد وما نالنى من تعذيب، وكان لا بد من تمثيل مسرحية فى محاولة لإخفاء الحقيقة عنى، فقد استدعيت للتحقيق آخر مرة، وفوجئت «براشيل»، ملقاة على الأرض فى إهمال ومقيدة بالحبال، والضابط يصب عليها شتائمه ..

حينما وصلت قال الضابط: «أنتما مفتاح السر، وترفضان أن ترشدانا إلى الحقيقة .. لسوف نطلق سراحكما، على أمل أن تتدبروا الأمر .. وستكون عيوننا وراءكما فى كل مكان ..».

لم يكن الضابط ساذجاً، بحيث يطلب منا ذلك ونحن متجاوران، كان يريد أن يوحى إلينا بأن القضية ليست قضية عربى وإسرائيلى، إنها قضية أمن، والأمن يتخذ إجراءات ضد الجميع سواء بسواء .. لا فرق بينى وبين راشيل .. إبراز للعدالة الصهيونية !!

ولقد دهشت أيماء دهشة حينما وجدت «راشيل» بعد أن غادرنا المعتقل، ونزلنا فى الطريق العام، تبكى وتحاول نفى ما نشرته الصحف نفياً قاطعاً، والأعجب من هذا كله، أنها روت لى كل ما جرى فى مبنى المخابرات، والمخطط الذى يدبرونه للخليفة ..

ووقفت مذهولاً أمام هذه الفتاة اللغز ، أحكم لها أم عليها؟

وقالت راشيل : «لن أتخلى عن ديني الجديد» .

- «إنه التكاليف والأعباء . . والتضحيات الكبار . .» .

- «أعرف . . لقد رأيت وسمعت . .» .

ثم صمتت برهة وقالت : «أعرف أن الإسلام حق . .» .

- «كيف؟» .

- «ما رأيته في المخابرات لم يكن أقل تأثيراً في نفسي من

كلمات عمر . . حقدتهم وانحرفهم برزا لي على وجه مدير

المخابرات . . لقد كان العار مجسماً . . أذكر وجه عمر . . ثم

أذكر ذلك الوجه القبيح الآخر . . فيزداد إيماني بالإسلام . .» .

ثم مدت يدها إلى فجأة وقالت : «فلتعاهد على حماية

الخليفة من غدرهم ، ولنكن إخوة صادقين متحابين . .» .

- «أعاهلك . .» .

لست أدري ما الذي قذف بكلمات الدكتور عبد الوهاب

يوم رأى عمر لأول مرة ، لقد تذكرتها الآن ، وأخذت أرددها

بصوت خفيض : « . . كان الطريق وعراً ، متوهجاً بالنار

والعذاب والقلق . . اتخذت العقل وحده رفيقاً . . شعرت

أننى فقدت جانباً رائعاً لا يدركه إلا المخلصون الباحثون عن نور الحقيقة . . الخرائط فى يدي وأنا أسير ، وأسير . . حتى سقطت إعياء وعيناي معلقتان بالسما . . جرعة ماء . . أين؟ أبحث عن دليل . . لا أجد . . سمعته فى البرية ينادى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه : ١٢٤] . . وعرفت الطريق يا ابن الخطاب . . البصر والبصيرة . . الروح والمادة . . العقل والعاطفة . . الوجود الحق بكماله . . أنا أبحث عنك من قديم . . » .

ونظرت إلى راشيل ، كانت الدموع تتألق خلف الشال الأسود . .



الفصل السادس عشر

كان غريباً ألا يكون للأكذوبة التي روجت لها الصحافة إلا صدى هزيل ، وقد أزعج هذا سلطات الأمن أيما إزعاج ، وبذر في نفوسهم قلقاً مكتوماً ، ولقد صرحت «راشيل» في إحدى مدارس البنات الثانوية في القدس بأن القصة التي تزعم الاعتداء عليها قصة مختلقة من أساسها ، وأن أومهماً مريضة حاقدة قد نسجت خيوطها من محض الخيال والافتراء ، وأكدت للفتيات أن عمر على حق ، وأنه من رجال الله الأتقياء الشرفاء ، وأنه يحمل في قلبه حباً كبيراً للناس ، ويتصرف عن يقين وإيمان ، ويمشى على هدى ونور ، وأن الله قد وهبه الكثير من الذكاء والخلق العظيم ، ولديه قدرة خارقة على الإقناع ، وهي لم ترَ في حياتها رجلاً مثله ، وتعتقد اعتقاداً جازماً بأن مثله هو الكفيل بإنقاذ البشر مما يعانونه من بلبلة وشقاء وحيرة ، وروت لهم قصة إسلامها من البداية للنهاية ، والحوار الذي

كان يدور بينها وبين الخليفة، فتركت في نفوسهن انفعالا ملحوظا، وشدت انتباه الجميع إليها.

وقالت إحدى الطالبات: « لكنه منحاز للعرب ».

قالت راشيل: « يا أخواتي، هو منحاز للحق، ويكره الظلم في شتى صوره وألوانه، بصرف النظر عن شخصية الظالم. تلك أخلاقه... ».

- « إنه يريد أن يعود بالمرأة إلى عصور الحريم المظلمة ».

رددت راشيل في ثقة: « المرأة في نظره إنسانة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لكنه يرفض تبذلها وانحرافها، ولا يعتبر ذلك تحرراً، وإنما هو ضرب من الإغراء والإفساد والحيوانية، يضر بالفرد، ويؤذي سلامة المجتمع. بل ويحط من شأن المرأة نفسها... المرأة في عصور الإسلام الأولى كانت محاربة... ومضمدة للجراح... وشاعرة... ومتفهمة في الدين، تروى الحديث، وتشارك في الأحداث، ويؤخذ رأيها... ».

وقالت طالبة ثالثة: « واضح أنه متمسك بالنظم التي سادت العصور القديمة، والحقيقة أن ما يصلح لزمان مضى، لا يصلح لزماننا هذا... ».

انطلقت راشيل قائلة: « هذه دعوى ظاهرها الحق، وباطنها الباطل... إنه لا يتمسك بنظم... بل بمبادئ وقيم... فالعدل

ليس فيه قديم وحديث . وكذلك الحرية والإخاء والمحبة . .
تلك القيم هي الأريج الذي ينعش قلوب البشر على حقب
العصور والأزمان ، وهي الدرع الواقية لكرامة الإنسان في كل
وقت . . . » .

وقالت فتاة أبوها عضو بارز في حزب العمال الإسرائيلي :
« هذا عصر العلم ، لا عصر الدين . . » .

قالت راشيل في شيء كثير من الانفعال : « يقول الخليفة ،
ليس في ديننا خصام بين الدين والعلم ؛ لأن منهج الإسلام
منهج عقلى ، يلتزم بالإقناع والبرهان والتأمل وينسجم مع
الفطرة السليمة . . قضية الخصام بين الدين والعلم قضية حديثة
من صنع أوربا حينما اصطدم العلماء هناك مع رجال الدين من
أجل النظريات والمكتشفات الجديدة . . هل فيمكن من تنكر أن
علماء الإسلام منذ قرون أسسوا علوم التجربة والملاحظة في
مجال الفلك والطبيعات والكيمياء والطب . . الرازى . . ابن
سينا . . ابن الهيثم . . ابن النفيس . . ابن حيان . . ابن
خلدون . . وغيرهم . . » .

وقالت فتاة أخرى : « الدين يجر إلى التعصب ، والناس
يجب أن يكونوا إخوة برغم اختلاف الملل والأديان
والألوان . . » .

ضحكت راشيل ، ونظرت إلى الفتيات باسمه : «يا أخواتي . . نحن بلا دين الآن . . هل اختفى التعصب؟ ومع ذلك فإنني أقول إن الدين الحق لا يعرف التعصب الأعمى !! المنحرفون في كل الأديان هم الذين يقعون في هذه المباءة ، ومحمد يقول ليس منا من دعا إلى عصبية . . ولا يكمل إسلام المسلم إلا إذا آمن بموسى وعيسى ومحمد وجميع الأنبياء والكتب المقدسة من قبل ، فهل فعل دين آخر مثلما فعل الإسلام !!» .

وقالت فتاة تكتم ضحكاتها : «ورأيه في الحب يا راشيل ؟» .
ألها السؤال ، وأدركت ماذا تقصد الفتاة الخبيثة ، لكنها اعتصمت بالصبر والحكمة وقالت : «الحب له جانبان حيوانى وإنسانى . . الأول ينظمه الزواج ، والثانى عاطفة عظمى يخفق بها قلب المؤمن لبنى الإنسان . .» .



ونشرت صحيفة معارضة حديث راشيل في مدرسة البنات بالكامل ، لكن الرقابة الإسرائيلية صادرت الصحيفة بإيحاء خفى من المخابرات العامة ، وكان هذا كفيلاً بأن يرفع سعر النسخة إلى عشرة أضعاف ، وكان الناس ، سواء العرب أو الإسرائيليون ، يبحثون عن هذه الصحيفة في مظانها ،

ويتداولونها سرّاً، وكأنها منشورات خطيرة معادية، أو كأنها مخدرات ممنوع بيعها، ولم تنتظم الدراسة في هذه المدرسة في اليوم التالي والأيام الثلاثة التالية بعد ذلك اللقاء المثير، فقد احتدم الجدل، واصطخبت الآراء، وأقلت الزمام من يد الإدارة. . . وحدث أمر كان له دوى هائل في أوساط المدينة المقدسة، فقد ذهبت عشر فتيات منهن؛ خمس من اليهود، واثنان من المسيحيات، ذهبن إلى المستشفى لمقابلة الخليفة، وطلبن اعتناق مبادئه، والتعلم على يديه، وقد استقبلهن الخليفة راضياً باسمًا. .

كنت أقف إلى جواره، ومعنا «راشيل»، والدكتور عبد الوهاب، كان مشهداً رائعاً، بل كان أروع مكافأة لما عانينا من متاعب وآلام على أيدي المخابرات الإسرائيلية، والنجاح يحيل الآلام القديمة إلى مجرد ذكرى حبيبة، لكن للأسف فوجئنا بعدد من رجال الشرطة ومعهم أولياء أمور الطالبات، فتحطم الحلم الجميل، وسيقت الفتيات تحت وابل من الشتائم والصفعات إلى بيوتهن، لكن دموعهن الغزيرة كانت تنبت أملاً لا يزوى على مر الأيام، ولم تنشر الصحف كلمة واحدة عن هذا التصرف في اليوم التالي، لكن الأحزاب الإسرائيلية دعت أعضائها لاجتماعات عاجلة، كما صدر أمر بتحديد

إقامة راشيل، وجاء بعض الضباط الجدد -منهم «إيلي» -
ليحرسوا الخليفة، ويلازموه بعيون يقظة .

وقال لهم الخليفة : «إننى أبحث عن شيء . . .» .

قال إيلي : «ماذا؟» .

- «أين الحرية في عالمكم؟» .

- «إنها شعارنا . . .» .

- «الشعار شيء . . . والسلوك شيء آخر . . لا حرية بلا
ممارسة . . تترغمون بالحرية، وفي الوقت نفسه تقفون في وجه
الدعوة إلى الله، وتعاقبون الناس إذا جرءوا على اختيار العقيدة
التي تتفق وعقولهم وفطرتهم» .

قال إيلي في غضب : «إنك تغرر بالفتيات الصغيرات،
وحمايتهن منك لا يضاد مفهوم الحرية . . إننا نحاصر وباء
يوشك أن يدمر المدينة . . .» .

ابتسم الخليفة في رثاء وقال : «الفضيلة وباء، لكن خداع
الفتيات تحت «الشجرة» والعبث بهن حرية وأخلاق . . يا ابن
الحضارة العفنة . . .» . انتفض «إيلي» من شدة الغيظ، ووضع
يده على مسدسه، وأخذ يركز على أسنانه، لكن زميله جره من
ذراعه قائلاً : «اعقل» .

وتنهذ الخليفة في حصرة: «لو كان لي جيش قادر لخرجت لتأديب أعداء الفضيلة والحرية، ولقُتِح الطريق أمام الكلمة الشريفة يا جلادى الحكمة.. هذا ما حدث أيام الرسول.. عذبه.. اضطهده.. وقسوا على صحابته.. خاصة الضعفاء منهم والعبيد.. وطردهم.. وسلبوا أموالهم.. فحملنا السلاح دفاعاً عن النفس والعرض وحرية الناس في أن يعتقدوا ما يشاءون.. كنا نزيل أسوار السجون التي بناها السادة والملوك لقهر البشر.. ومع ذلك فقد جاء من يزعم أننا نشرنا الإسلام بقوة السلاح.. وهم يعلمون أن شعارنا: «لا إكراه في الدين»..»

رماه إيلى بنظرة حارقة: «أمن الدولة فوق كل اعتبار».

ابتسم الخليفة قائلاً: «وما الدولة؟ مجموعة الأفراد.. وعندما يشقى هؤلاء فستكون الدولة كلها شقية تعسة.. لكن الدولة في الحقيقة حسب تصوركم هي الحاكمون وأهواؤهم».

تصيب «إيلى» عرقاً وأخذ يقول: «نحن نعرف طريقنا جيداً.. لو كان في دينكم خير لما كان المسلمون في هذه الأيام أول الشعوب وأكثرها رجعية وضعفاً..»

قال الخليفة في نبرة أسي: «أنت على شيء من الصواب، لكن، هل هم مسلمون حقاً؟! لو تمثلوا الإسلام وساروا على

نهجه لتحول الضعف إلى قوة، والذل على عزة.. العيب عيب الرجال وليس عيب المبادئ..».

وكز إيلي على أسنانه مغتاظاً: «تفلسفون خيبتكم، كل ما أعرفه أننا في أوج العلا، وأنتم في الحضيض..».

هدر الخليفة: «أيها الخنزير..» والله العزة ولرسوله وللمؤمنين» إن أية قوة غاشمة، لن تستطيع أن تطمر النور الإلهي إلى الأبد..».

اقترب «إيلي» من الخليفة، وعلى وجهه تعبير الشماتة الصارخ: «لن ترى راشيل بعد اليوم».

أشرق وجه الخليفة بالسعادة وتمتم: «هذا أمر لا قيمة له، لم تعد راشيل في حاجة إليّ، إن معها الله، وهو القوى المتين، أتفهم هذه الكلمات. كان «بلال» وحده.. وكانت هناك امرأة يقال لها «سمية».. وياسر.. وعمار.. كانوا وحدهم وسط صخب الكفر وحشوده.. إن قريشاً بكل ما تملك من مال وقوة وحقد لم تستطع أن تزلزل إيمان أحد منهم.. أتفهم؟ لم تعد راشيل في حاجة إلى أحد بعد أن استغنت بالله عني وعنكم..».

سدّد «إيلي» إلى الخليفة نظرات ذئب شرس، وأخذ يتحرك هنا وهناك في عصبية، ثم يتوقف ويعود للحركة، وفجأة قال للخليفة: «أنت تشتهيها..».

- «أنت تقيس الأمور بموازينك الخاطئة. .»

- «بل تشتهيها. .»

يريد أن يثير الخليفة، ويشعل غضبه، قال الخليفة: «ما جئت لدنيا أنهل من متعتها. . عناق الأرواح لذة أبدية لا تزول. . والحب الطاهر أعذب لحن تعزفه القلوب. . أتفهم ذلك يا إيلي. . لو أردت الزواج منها لثم ذلك على الفور. . لكن الرائد لا يكذب أهله، وغايتي الله. . لم تتعلق بنفسى بشيء من الدنيا. .»

ونظر «إيلي» إلى معصمه، وقال في تشفٍّ:

- «لقد سجلت حديثك كله، وسوف يدينك هذا الكلام، ويحملك إلى جبل المشنقة».

ضحك الخليفة ضحكة خفيفة: «لقد جربت الموت. . وجدته رحلة رائعة إلى العالم الآخر. . وأنا أقول ما أعتقد، ومستعد لأن أكرر الكلمات نفسها وأزيد عليها في أى مكان وزمان. . أريد العالم كله يستمع إلى كلماتي. . أتفهمون يا خراف بني إسرائيل الضالة؟»



وعمدت المخابرات إلى تنفيذ مخططها المرسوم، حتى تؤهم المسلمين أن الخليفة ما هو إلا عميل صهيونى بارع، وقد

نسبت إليه أقوالاً لم ترد على لسانه، وزعمت أنه يشجب الحركات الفدائية الإرهابية ويستنكرها، ويدعو إلى الصلح والسلام بين دول المنطقة بما فيها إسرائيل .

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، فقد تكونت جماعة سرية أطلقت على نفسها «جماعة أنصار الخليفة»، وأخذت تطبع المنشورات وتوزعها في كل مكان. وتلصقها على الحيطان، وتضعها في صناديق البريد، وترد فيها على الأكاذيب الإسرائيلية، وتحدث السلطات بأن تسمح لمراسلي الصحف الأجنبية ووكالات الأنباء كي تحقق في الأمر بنفسها، وتلتقي مع الخليفة، وقد أزعجت هذه الجماعة سلطات الأمن، وأتلفت مخططاتها، وأفسدت كل تدابيرها . .

ولم تحم الشكوك من حولي، فقد كنت مُراقباً من قبل المخابرات، ويعرفون كل تحركاتي ومقابلاتي، والحق أن الذي لعب الدور الأكبر في تنظيم هذه الجماعة هو الدكتور عبد الوهاب السعداوي، وكذلك راشيل برغم تحديد إقامتها، بل قامت للجماعة فروع لا تربطها بنا أية صلة، وسارت على النهج نفسه، والغريب أن بعض الإسرائيليين أخذوا يتصرفون بطريقة لا تصدق، فقد بلغت بهم الجرأة مناقشة الأمر في الشوارع والنوادي، وانقسموا إلى مؤيدين ومعارضين، وإن لم تتجاوز حدود المناقشات دون الأفعال الإيجابية .

ولم تكن أسرة «راشيل» آسفة لحجزها بالمنزل، لأن الاعتقاد السائد، أن أية تجربة جديدة تخوضها ابنتهم، ستكون مادة غنية بالمزيد من الأحداث، عند كتابة المذكرات. . وكانت أسرتها تدافع عنها، لا عن اعتقاد بسلامة موقفها - فهم يرفضون إسلامها، ولا يصدقونه - ولكن حبكاً للمسرحية الشائقة، وضماناً لنجاح الصفقة.



وعلمت مصادفة أن الدكتور «وهيب عبد الله» قد اختفى منذ خمسة أيام، وقيل إنه في إجازة دورية لأسبوعين، وعلمت أيضاً أن العلاقة العاطفية التي تربط بينه وبين الحكيمة «رجاء»، قد تعرضت في الأيام الأخيرة للانهيـار، على أثر مناقشة حادة بينهما عن الخليفة. .

راودتني الشكوك من جراء اختفاء وهيب. يخيل لي أنه ناعم الملمس، لكن له أنياب ثعبان، يكره الدين والمتدينين. أيـمكن أن يكون قد بدأ يمارس نشاطاً معادياً للخليفة بالاتفاق مع رفقائه في الحزب؟ إنه يصرح دائماً بضرورة القضاء على التيارات الدينية، وخنق ثورتها المضادة قبل بلوغها مرحلة القدرة والتنفيذ. . يجب أن أفكر في كل احتمال. . ليتني أعرف طريقه!!

الفصل السابع عشر

عندما نشرت الأنباء الأولى عن ظهور أمير المؤمنين فى القدس ، استقبلت الصحف العربية والإسلامية النبأ بتحفظ بالغ ، ففى مربعات صغيرة بالصفحات الأولى كتبوا النبأ المشير تحت العناوين التالية : « يزعم أنه عمر بن الخطاب ! » « عمر فى القدس ! » « بدعة إسرائيلية جديدة . . » إلى غير ذلك من العبارات التى تحمل معنى السخرية والشك ، وعندما كثرت الأحداث ، وعمدت الصحف الإسرائيلية إلى نشر بعض التفاصيل ، وأبدت وكالات الأنباء اهتماماً بالأمر ، فيما يشبه الحياء دون تعليق ، لكن إحدى الصحف كتبت دراسة شاملة - فى حلقات - عن خليفة المسلمين وجهاده وحروبه وحياته الخاصة والعامة ، ثم صدرت بعد ذلك كتب تعالج مختلف النواحي فى حياة الخليفة منذ قرون ، منها كتيب صغير فى سلسلة كتب الأطفال ، وأعيد طبع كتاب « عبقرية عمر » للعقاد ، وكذلك كتاب « الفاروق عمر » لمحمد حسين هيكل ،

والمسرحية الطويلة التي كتبها على أحمد باكثير، وسارع كتاب
 المناسبات بإعداد حلقات للمذيع والتلفزيون، ولم يتقاعس
 خطباء المساجد ووعاظها، إذ أدلوا بدلوهم في الدلاء، بل إن
 بعض وزارات الأوقاف بالدول العربية قد أعدت خطبة رصينة
 بهذه المناسبة، ووزعتها على الخطباء التابعين لها، وحرص
 المسئولون وهم يعدون هذه الخطب على مراعاة شتى
 الظروف، وإظهار الخليفة بمظهر التقدمية والحرص على
 مصالح الجماهير الكادحة، والضرب على أيدي المتنطعين أو
 الجامدين من رجال الدين. وهيئات البريد هي الأخرى
 أخرجت بعض الطوابع التذكارية التي اعتُبرت آية في الروعة
 والفن، كما شارك الشعراء وكتاب القصة في هذه المناسبة،
 فأنشدوا أرقص القصائد، وكتبوا أبرع القصص. وتقدمت
 بعض الشركات السينمائية إلى الجهات الدينية المسئولة بطلب
 تصريح لإخراج «فيلم» عن الخليفة، حتى يتمكنوا من إظهار
 شخصيته على الشاشة الفضية. فاشتراط علماء الدين مراجعة
 القصة والفيلم وكذلك السيناريو والحوار قبل العرض على
 الجمهور، وقد كانت هناك فتوى قديمة لهيئة العلماء بعدم
 السماح بإظهار الرسول أو صحابته على الشاشة أو خشبة
 المسرح، فأخذ الجدل يصطخب من جديد حول هذه النقطة،
 واختلف العلماء، وحمى النقاش بينهم..

لكن كتاب «اليسار» قابلوا الموضوع بشيء من الاستهانة والسخرية بادئ ذي بدء، ولم يعلقوا بغير الرسوم الكاريكاتيرية الضاحكة، فهناك صورة لعمر يمسك بسوط ويطارد لابسات «البكينى» على الشواطئ، وأخرى له وهو يجلد أحد الزناة في ميدان عام، وثالثة وهو يقطع أيدي عصابة من اللصوص، غير أن الموجة العارمة الأخذة في النمو والانتشار قد هزت مقاعدهم، وزلزلت الأرض تحت أقدامهم، فغيروا خططهم، ولبسوا رداء الجذ والاهتمام، وأخذوا يكتبون عن اشتراكية الإسلام، وعن اتجاه اليسار في العصر الأول، لقد كتبوا عن عمر بأسلوب مستحدث مستخدمين المصطلحات الخاصة بهم، مثل: حكم الطبقة، وصراع الطبقات، ودكتاتورية البروليتاريا، والمادية الجدلية، والعنف الثوري، والتصفية الدموية، وصراع المتناقضات، والتطلعات البرجوازية، والالتحام الجماهيري، وتخدير الشعوب، وتحالف الإقطاع مع سدنة الأديان ومستغليها، خليط عجيب من المصطلحات العلمية والفلسفية، يُدس في خضمها اسم عمر وكلمة الإسلام.

كانوا يأخذون بعض الكلمات الماثورة عن عمر، ويكتبونها بأحرف جميلة كبيرة، وسط مربعات أو مستطيلات أو دوائر مزخرفة، ويعلقون عليها تعليقات تبدو عميقة موحية، ومن

أطرف ما قرأت في تلك الأثناء تعليقاً لكاتب شاب معروف بميوله؛ إذ قال: «إن كلمة عمر الخالدة: لو عثرت بغلة في العراق لسئلت عنها أمام الله: لِمَ لَمْ أسوّلها الطريق، تفتح الطريق أمام «رؤية شاملة» لبعْد نظره، وإحساسه العميق الفطري بوحدة العراق مع الجزيرة العربية. وغيرها من الدول العربية، وتبدو في ثنايا الكلمات مسئولية الحاكم-الممثل للطبقات الكادحة-أمام أصحاب الحق والمصلحة في حركة التاريخ، وكلمة «الله» هنا رمز (هكذا)؛ إذ تعنى بالضرورة! سلطة الطبقة التي استخلصت حقوقها ومصيرها من يد العفن الإقطاعي، والرأسمالية الداعرة الخائنة، في مجتمع مكة الاستغلالي، وكلمة «بغلة» نفسها توحى بحس مرهف صقلته التجارب عبر المسيرة الثورية الأصيلة، تذكرنا بشفافية الفنان الروسي تشيخوف وواقعية الروائي الأشهر مكسيم جوركي... إلخ» خليط غريب، وتفسيرات لا أستطيع أن أخرج منها بمعنى شامل يرتبط بحياة الخليفة وسياسته وعقيدته...

حتى السجون والمعتقلات شاع فيها النبا. وزعم المجرمون وتجار المخدرات واللصوص، أنه سيصدر عنهم عفو شامل لا محالة، بهذه المناسبة السعيدة، ووجدوا من يقول لهم: إن عمر قد أبطل حد السرقة في عام المجاعة، وكان لا يعاقب اللصوص في تلك الفترة، وأنه عادل رحيم يهيئ سبل العيش

الشريف لكل المساكين والفقراء وذوى العاهات ، إنه حبيب
للصوص والتعساء والمظلومين . . وكف السجناء المزمنون عن
ترديد أساطير أبى زيد الهلالي ، والأميرة ذات الهمة ، وأرسين
لويين ، وأخذوا مسيرة عمر الفارس الهمام الذى لا يشق له
غبار ، والحاكم العادل الذى قضى على الظلم والفساد ، ودوخ
الفرس والرومان ، وأخذ من الأغنياء ليعطى الفقراء ، وقضى
على المحسوبة والرشاوى .

حتى محلات الأزياء الحديثة ، حيث يباع المبنى جيب ،
وأدوات التجميل فرنسية الصنع ، نظموا «أوكازيونات» بهذه
المناسبة السعيدة ، وافتتح بعضهم فروعاً تحمل اسم الفاروق
عمر أو ابن الخطاب ، وبلغت السخرية أقصاها حينما قبضت
شرطة المخدرات على كمية ضخمة من الحشيش المهرب من
إسرائيل ، ووجد أن اسم الماركة الجديدة «الفاروق» . . الحقيقة
أن الموضوع الطريف قد خلق موجة من الإنعاش الاقتصادى
فى شتى المجالات ، كما سجلت دفاتر المواليد نسبة كبيرة من
الأطفال الذكور ، الذين سُمُّوا باسم «عمر» ، بل إن بعض
المواليد من الإناث سمين باسم «حفصة» ابنة عمر ، وانتشرت
مجالس الذكر التى تقدمها الطرق الصوفية فى كل كفر وقرية ،
وعمروا المساجد والزوايا . . وزعم بعض العامة أن لعمر قبراً
فى بطن الجبل ، وضربوا عرض الحائط بتأكيدات المؤرخين

الذين ذكروا أن قبر عمر إلى جوار قبر الرسول وأبي بكر في المدينة المنورة . . وظهرت دعوة في مجلة دينية صغيرة ضيقة الانتشار، تقول: إن على الدول العربية أن توسط «الصليب الأحمر الدولي» أو مراقبي هيئة الأمم، كي تعامل إسرائيل عمر «كأسير حرب»، وليسلم لإحدى الدول العربية أو الإسلامية .

وأبدى علماء الدين همّة كبرى في الاحتفال بأيام عمر وسيرته العطرة، وحاولوا تخليص تاريخه الحافل من الخرافات التي أخذت تنتشر بين العامة . .

أما فيما يختص «بعمر» -الشخص الذي ظهر في القدس فقد تناقضت الآراء، قال أحد العلماء: هذه قضية سياسية لا يصح الخوض فيها إلا بعد أن تتخذ الحكومات قراراً بذلك . وقال آخر: لو كان هذا الإنسان عمر فعلاً، لتولى على الفور مشيخة الأزهر، ولجر علينا الكثير من المتاعب بسبب نقشفه وزهده وشدته، ولسخر من بيوتنا وملابس بناتنا وزوجاتنا، بل . . لحاول جلدتهم . .

وثالث علق قائلاً: هذا زمان الفسق والفجور والسفور الداعر، والعهر الفكري والفنى والأخلاقى، ولا مكان لعمر فيه، وسيلقى من المسلمين أنفسهم حرباً لا تقل عنفاً عن حرب إسرائيل له، لكن صديقاً له رد قائلاً: «إن هذا الزمان بنقائصه

وانحرافاته أنسب مناخ لظهور رجل كعمر، كى يلزمه الجادة،
ويأخذ بيده إلى طريق الخير والفضيلة والعدل...»، وعالم آخر
قال: الأمر كله أكذوبة ولا شئ غير ذلك... وصوفى كبير
عضو بالمجلس الصوفى الأعلى قال: «لا يراودنى شك فى أنه
عمر بن الخطاب نفسه، تلك كرامة من الكرامات، أو مظهر
من مظاهر قدرة الله التى لا يدانيها أحد...».

واهتمت الصحافة العربية والإسلامية فى مرحلة تالية،
بقصة «راشيل» واتهمت الصحافة الإسرائيلية بمطاردتها
للعناصر الشريفة. وتشويه سمعتها، ونسج الأكاذيب حولها،
ودليلهم على ذلك تكذيب «راشيل» لكل ما نشر بالصحف
المعادية بهذا الخصوص.

لكن الموقف تغير تمامًا، حينما غمزت إحدى الصحف،
وأوحت إلى القراء بأن الرجل «عميل» صهيونى، و«لعبة»
أمريكية بارعة، وهنا قامت قيامة الصحف، ورجال الدين،
والتقطت الخيط وانتقلت إلى «الرجعية» الخائنة المتعاونة مع
الاستعمار والصهيونية، وكان هذا بداية لموجة من الاعتقالات
والتحقيقات.

وعندما ظهرت منشورات «جماعة أنصار عمر» تحير
المعلقون، ماذا يقولون؟ أيها جمون الافتراءات الصهيونية، أم

يهاجمون «جماعة أنصار عمر»؟ وانحاز غالبية رجال الأمن في العالم العربي والإسلامي إلى الرأي الأخير.

وصدرت المقالات والتصريحات ترمى هذه الجماعة بالخداع والنفاق، وإظهار خلاف ما تبطن، واستقطاب الطاقات الثورية لتعطل العمل الحربي الفدائي، وتشغل الجماهير عن معركتها الأصلية، وزعموا أن «جماعة أنصار عمر» ما هي إلا مؤسسة استعمارية تشبه «جماعة أنصار الحرية»، ومجلة «حوار» التي تصدرها المخابرات الاستعمارية والإسرائيلية. والتي وقع في حبالها عديد من حملة الأقلام الكبار. . . والمضحك أن بعض الشكاوى المجهولة قد أرسلت لبعض الحكومات، تتهم فيها بعض الأفراد بالانتماء إلى «جماعة أنصار عمر»، مما اضطر رجال الأمن لعمل «دوسيهات» خاصة وقوائم لأولئك الأفراد المشبوهين.

أجل. . . نجحت إسرائيل في بلبلة الرأي العام الإسلامي كما تفعل دائماً، ولم تكن قادرة على أن تحقق ذلك النجاح لولا سذاجة المسلمين، ومناخهم الفكري والسياسي الصالح لنمو هذه الفتن واستشرائها. .



الفصل الثامن عشر

استطاع أحد رؤساء تحرير الصحف أن يقنع سلطات الأمن بأن تسمح له بلقاء صحفى مع الخليفة، وبين لهم أن هذا اللقاء لن يخرج عن بعض الأمور الطريفة المحرجة التى قد تظهر الخليفة بمظهر العاجز عن فهم الحياة الحديثة، وإدراك أسرارها وعلومها ومنجزاتها، ولا شك أن ذلك سيكون له أسوأ الأثر على حلفائه وحواريه والجمعيات السرية التى تروج لدعوته، وسوف يفهم المتحمسون له أننا لا نهاب الخليفة أو نسجنه، بل نعتبره مجرد تسلية جماهيرية مضحكة، هكذا قال الصحفى الكبير، والحقيقة أن ذلك الصحفى بذل جهداً كبيراً فى الوصول إلى بغيته، وتكلف الكثير من المال والهدايا، واستغل الصداقات، ووعد برد الخدمة فى الدعاية لحزب معين عند الانتخابات. . . وكاد الخليفة يعتصم بالصمت ويرفض الإجابة، غير أن مخاوفهم قد تبددت حينما أبدى الخليفة استعدادة للإجابة عن أى سؤال. بل طلب منهم أن يسمحوا له

بمخالطة الجماهير . والسير في الشوارع ، وارتياح ما شاء من الأماكن . فهو لا يخاف الناس ولا يزعجه أن يقول ما يعلم ، ولا يحرجه ألا يعلم بعض الأمور . . . فهذا أمر طبيعي . .

اتخذت الاستعدادات . وأخلت حجرة الخليفة . ودخل الصحفي الكبير ، ترافقه إحدى المحررات التي تجيد العربية .
وابتدأ الصحفي قائلاً : « الصحافة في خدمة الحقيقة » .

- « لكل حقيقته يا رجل . . ولقد رأيت بنفسى كثيراً مما تسمونه حقيقة ، فإذا به زيف وكذب . . » .

ابتسم الصحفي ، ثم قال :

- « إنها تعبير عن رأى الشعب » .

- « بل عبد ذليل في خدمة المصالح والأنانية . . » .

واستخرج الصحفي بعض الجرائد قائلاً : « انظر . . هذا مقال يهاجم الحكومة . . » .

نظر عمر في المقال ، وسمع للصحفي وهو يقرؤه ثم قال الخليفة : « فرق شاسع بين الهجاء . . والنصيحة . . لقد حبست شاعرنا الخطيئة عندما جعل من شعره منبراً للسب والفحش . . » .

مالت الصحفية على أذن رئيسها قائلة : « لندخل في موضوعنا مباشرة . . إن كلماته كالرصاص . . » .

هز الصحفي رأسه موافقاً وقال: «من أنت؟».

- «عمر...».

- «أكنت ملكاً؟».

- «بل خادم لأمة محمد، حملت في عنقي أمانة تنوء بحملها الجبال، دعوت الله أن يقبضني قبل أن يضعف جسدي، أو يضرب فكري... فاستجاب لدعائي...».

- «قالوا: إنك كنت شديداً في حكمك».

ابتسم عمر وقال: «لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان، وليست شدة السلطان قتلاً بالسيف، أو ضرباً بالسوط، ولكن قضاء بالحق، وأخذاً بالعدل...».

وتدخلت الفتاة المحررة قائلة: «ما رأيك في الصلح؟».

- «في القضاء... الصلح جائز بين المسلمين المتخاصمين إلا صلحاً أحلّ حراماً، أو حرّم حلالاً...».

- «أعني صلح إسرائيل مع العرب...».

اكفهر وجهه وقال: «كيف يتم صلح بين اللص وضحيته... إلا إذا رُدّت الحقوق لأربابها؟».

تدخل الصحفي قائلاً:

- «ما الفرق بين المسلم العربي والمسلم العجمي...».

ابتسم عمر مرة أخرى وتمتم: «قلت ذات يوم: والله لئن جاءت الأعاجم بالأعمال، وجئنا بغير عمل، فهم أولى بمحمد منا يوم القيامة، فلا ينظر رجل إلى القرابة، وليعمل لما عند الله، فمن قصر به عمله، لم يسرع به نسبه...» وحبيبي قال: لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأعجمي على عربي إلا بالتقوى... والمسلمون سواسية...».

هتف الصحفي العجوز في مكر:

- «فلماذا قتلك أبو لؤلؤة المجوسي؟».

- «ولماذا قتل أبائكم الأنبياء؟».

هزت الفتاة رأسها في ميوعة وقالت: «الحب يا أمير...».

لم ينظر عمر إليها وقال: «له معنى كبير...».

- «كيف؟».

- «لا يولد إلا في قلب المؤمن».

- «والملاحدون؟ ألا يعرفون الحب؟!».

- «لكم دينكم ولى دين...».

- «لم أفهم...».

- «لغتك غير لغتي . . أنا أتكلم بلسان عربى ميين» .

- «وأنا؟» .

- «ذئبة ترتدى ثياب امرأة قلبك يطفح بظلام يضج بالأهواء
العريضة . . وأنا أبحث عن قوم يجردون الكلمات من
استعاراتها الحيوانية ، وإحياءاتها الخبيثة . . » .

قهقهت المرأة فى دهشة وقالت : «إنه يعرف فى النقد الأدبى
يا أستاذ . . » .

- «أتحب راشيل يا أمير؟» .

- «تضايقنى يا فتاة كلمة أمير . . » .

- «لن أعود لها . . » .

- «أحب راشيل . . كما أحب أى مؤمن صادق فى أى
طرف من أطراف الأرض . . دون أن أراه . . » .

قالت فى غيظ : «راشيل . . الأنثى» .

- «لم أفكر مطلقاً فى الزواج . . » .

- «أعنى شيئاً آخر . . » .

أشار الصحفى بيده كى تصمت ، ثم اقترب منه قائلاً :
«أنتعتبر السينما رجساً من عمل الشيطان؟» .

- «السينما ككشف علمي مفخرة .. لكنكم ملائم الوعاء بالقاذورات والأوبئة .. ولهذا تحولت المفخرة العلمية .. إلى أداة قتل وتشويه للقيم الفاضلة ..» .

- «قيل لى إنك شاهدت مباراة كرة القدم الأخيرة .. أتحب الرياضة ..» .

- «لهو برىء، وتنشيط للجسم .. واكتساب لمهارات لا بأس بها .. إنها شيء يشبه اللعب بالسيوف، وسباق الخيول على أيامنا ..» .

وتدخلت المحررة مقاطعة: «أفضل الموسيقى الشرقية أم الغربية ..» .

- «الشيء الجميل محبوب، دون النظر إلى شرقيته أو غربيته، والحب عندي يرتبط بالفضيلة .. المهم ألا تحرك في نفسى نوايا شيطانية، أو تصرفنى عن عبادة الله ..» .

أمسك الصحفي بالخيوط متسائلاً: «ما هي العبادة؟» .

- «الصلاة .. ذكر الله .. الصوم .. الزكاة .. الحب .. الصدق .. العمل الصالح عبادة .. وكسب الرزق عبادة .. القاضي العادل يتعبد على منصة القضاء، والحاكم العادل عابد وهو يمسك بميزان الحق بين البشر ..» .

وقالت المحررة: «أى رسل الله تفضل؟».

- «لا نفرق بين أحد من رسله . . ».

وحاول الصحفي استشارته قائلاً: «كنت تكره يهود

الجزيرة . . ».

- «كنت أكره الظلم والفساد والخيانة . . ».

- «أنت متعصب . . ».

- «للحق وحده . . ».

- «وأنت واصلت الحروب، وأسلت الدماء . . ».

رماه الخليفة بنظرة ذات معنى وقال: «قال لى الجراح: لا بد من استئصال «الزائدة الدودية» الفاسدة كي تعيش . . حطمت أسوار السجون التي يرزح خلفها البشر التعساء . . وفتحت الأبواب ليتدفق النور ويبدد الظلمات، أتحب أنت أن تبقى الأسوار، ويسود الظلام، وتحيا بزائدة دودية متعفنة؟ لا إكراه في الدين . . ».

هب الصحفي واقفاً وقال: «يا للمصيبة!! أهذا مجنون؟ مستحيل . . أين الخرافة التي يتحدثون عنها».

وانحنى الصحفي أمامه في ذهول قائلاً: «أأنت عمر؟».

- «نعم . . . ».

قالت المحررة: «أسأله يا أستاذ عن حرب فيتنام . . .»

هز الخليفة كتفيه قائلاً: «لم أدرس هذه القضية بعد . . . من قال لا أعلم فقد أجاب . . . لا أخوض في شيء إلا بعد تيقن . . .»

قالت: «والقدس لمن؟»

- «السرق لا تعطى اللص حق الملكية الشرعية . . .»

همس الصحفي: «والشيوعية؟»

- «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٧] صدق الله العظيم . . .»

- «والدول الرأسمالية . . . أمريكا مثلاً؟»

- «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٦، ١١٧].

قال الصحفي العجوز: «هذا عصر العلم».

- «في كل عصر علم . . .»

- «أعني لا مكان للدين . . .» .

- «خالق الزمان والمكان لم يعطكم هذه السلطة . . أنتم مغرورون . . والمنكرون لله لم يستطيعوا أن يغيروا من سنن الكون الإلهية ذرة . . .» .

هتفت المحررة: «لقد وطئت أقدامهم سطح القمر . . .» .

- «ذلك جهد المقل . . الطائر يعلو . . والنسر يحلق قرب القمم . . وطاقراتكم تمتطى السحاب . . وآخرون صافحوا وجه القمر . . قدرات متباينة . . لا شيء سوى أنها جديدة . . أعرف أنه كان حلمًا . . لكنه ليس رخصة للجحود بخالق الإنسان . . والأرض . . والقمر . . والعناصر . . .» .

دارت رأس الصحفية، لمعت في عينيها دمعتان، ارتجف جسدها، صاحت مستنجدة: «هيا بنا يا أستاذ . . أكاد أسقط إغماء . . وأوشك أن أؤمن بهذا الرجل . . .» .

جذبها من ذراعها وهتف في قسوة:

- «ما هذا العبث . . تماسكى . . لم نأت لنؤمن أو نكفر . . جئنا لنؤدي عملاً صحفياً . . مهمة . . أتفهمين . . جلست على مقعد قريب ويداها على جبهتها .

وقال الصحفي العجوز: «من أين جئت؟» .

- «كما يأتي البشر . . لا عبرة بالمكان . .» .

- «والى أى شىء تريد أن تدعو الناس . ؟» .

مد الخليفة ذراعيه ، وبسط راحتيه ، وقال : «نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً . .» .

- «أتريد أن تقول للجُمهور شيئاً . .» .

- «قلت الكثير . . ولا شىء سوى : ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى
اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة : ١٠٥] .



اهتزت النوادي ، وتكهرب الجو ، واختلط الأمر على
الناس ، وأعلنوا فى عجز : «إنها ظاهرة غريبة . .» .

الفصل التاسع عشر

طال احتجاج «راشيل»، وشعرت أسرتها بالضجر والغيرة، خاصة بعد أن نُشر الحديث الذي أجراه الصحفي العجوز والمحرة الشابة، التي أثارت الاهتمام بتصرفاتها، وإظهارها الميل لما يقوله الخليفة، وتسليط بعض الضوء عليها. . . وهدد والد «راشيل» سلطات الأمن بفرض مخططاتهم، أو رفع الأمر إلى القضاء، ورفض تحديد إقامة فتاته دون مبرر كاف، وكان يردد دائماً أن ابنته لها الحق في أن تقابل من تشاء وتعتق ما تشاء، وأن الخليفة ليس بالشخص السيئ أو الذي ثبتت إدانته في ارتكاب عمل حقيقى، يعتبر منافياً للقانون، وقال: «إن التدخل فى مسألة شخصية كهذه، أمر يدعو للأسف، ويعتبر اعتداءً صارخاً على حرية المواطنين، وفيه إساءة إلى سمعة الدولة» . .

لقد وجد أبو «راشيل» أن فى إمكانه إثارة قضية جديدة، ولفت الأنظار ثانية إلى ابنته، فيكون بذلك قد خلق مادة

طريفة، فشرى مادة المذكرات، ويزداد عدد صفحاتها، ويرتفع ثمنها، ولم تمنع «راشيل» في تنفيذ هذا المخطط، لا عن اقتناع بوجهة نظر أبيها، ولكنها لم تعد تطيق البعد عن الخليفة، إنها تشعر بلهفة عارمة للقياء، ومن ثم كان احتجازها مرهقاً لأعصابها، باعثاً للضيق والحنق في نفسها. إزاء هذه الضجة وجدت سلطات الأمن، أنه لا مانع من إطلاق حرية الفتاة بشرط ألا تقابل الخليفة وحده، وتحاول الكف عن الإدلاء بأية تصريحات للصحف أو لعامة الناس، خاصة الفتيات صغيرات السن.

لبست «راشيل» ثيابها الضافية، وامتنعت عن استعمال مساحيق الوجه أو أدوات التجميل لأول مرة، وحينما ألحت عليها أمها قالت: «لا داعي لكل هذا، إنى أمقت الزيف، ولن أنفذ إلا ما يرضى الخليفة، إننى أشعر بسعادة كبرى حينما أقدم على فعل شيء أمرنى به، أو أتخلى عن صنيع لا يروق له...».

ضحكت أمها وقالت: «إنك تجيدين دورك مثلما كانت تفعل أملك تماماً».

وأسدلت «راشيل» الشال الأسود على وجهها، ثم هرولت خارجة، وعلى مقربة من الباب التقت إيلي: «أين تذهبين؟».

قالت وهى تواصل سيرها : «إليه» .

- «إننى أعرفك جيداً يا راشيل» .

قالت فى تحدٍّ : «راشيل اليوم وغداً بإذن الله» .

- «راشيل الأمس أم اليوم؟ أنت تبيعين وطنك بأحط الأثمان . . .» .

رمته بنظرة ساخرة قائلة : «لقد آمنت بالرجل ، وهذا حقى ، وكل دولة فى العالم تحتضن إلى صدرها شتى المذاهب والأديان . . .» .

دق الأرض بقدمه وصاح : «أنت لا تعرفين شيئاً اسمه المبادئ» . فردت : «أنت عبد للأناية والحق . . .» .

صرخ مغتاضاً : «بل أنت فتاة تستعبدنا نزواتها ، أنا أعرفك ، وقد استعصى عليك الرجل ، وعندما تنالين منه ما تريدن سيتهى كل شئ . . . الحرمان يُجَمِّلُ لك الصبر ، ويرسم لك قيماً زائفة . . . وستعري فلسفتك العرجاء إن عاجلاً أو آجلاً . . .» .

غمغمت : «أنت تحلل الأمور بعقل حاقد مريض» .

ثم شردت قائلة ، وعيناها تهرع للسحب البيضاء بنظرات حاملة : «لا أستطيع أن أحجب خياله عن ذهنى ، كلماته الشجية

تظن في رأسى صباح مساء . . الوحيد في عالمنا الذى أفلت من
إسار الخوف والنفاق والعقد النفسية . . لو صورته لى الكتب
على هذه الصورة قبل أن أراه، لهززت كتفى ساخرة وقلت
هذه أسطورة لا وجود لها . . لكنى الآن ألمسه عن كُتب . .
وأسمع كلماته، ويحلو لى دائماً أن أقارن بينه وبين غيره من
الناس، فيهلونى الفرق الشاسع . . »

ثم التفتت إلى «إيلى»، وتوقفت عن السير وقالت فى جد:
«لم لا تفكر فى اتباعه؟» .

- «مستحيل . . أنا أكرهه بكل ذرة فى كيانى . . »

وضحك فى توتر واستطرد: «المسلمون أنفسهم
يرفضونه . . واليهود لن يتركوه . . والمسيحيون متزعجون
لترامى شهرته وتأثيره . . »

قالت «راشيل»: «لم ينبجُ من الانحراف أحد . . حياتنا
المادية جعلت الجميع يعادون كل معنى روحى جميل . . رجل
الله لا يخاف . . لا يعرف دبلوماسية العصر الخربة . . لا يحركه
مطمع ذليل . . عالمنا يقيس تصرفاته بالمنفعة . . بالمقاييس
المنحطة، حتى الدين أحالوه إلى قضية دنيوية بحتة، تتقاذفه
أهواؤهم وعصبيتهم وسلطاتهم الرخيصة .

شحب وجه «إيلى»، وقال مضطرباً: «تتكلمين كفيلسوفة

وأحياناً كمبشرة . . الكارثة أن أسرتك وبعض رجالنا ما زالوا يشقون فيك . . وأنا . . أنا المسكين . . أحاول دائماً أن أدافع عنك . . كلما ازددت عنى بعداً، ازددت بك تمسكاً . . أى شيطان تلبس جسدى . . » .

طأطأت رأسها وقالت في ارتباك : «إننى مخلصة للحقيقة وحدها . . لماذا لا تمضى معى فى الطريق يا «إيلى» ، سأكون فى غاية السعادة حينما أرى رجلاً مثلك ييصق على تفاهات العصر الحقيرة، ويخلع عن فكره وقلبه سلاسل القهر . . ويتحرر . . ويتجرد لله . . » .

رفع صوته فى محاولة للتغلب على ضعفه وقال : «أنا لا أعرف غير عملى ومستقبلى ووطنى» .

- «لقد صوبك فى قوالبهم . . ماتت إرادتك . . » .

- «أنا رجل واقعى . . » .

- «لشد ما تظلمون الواقعية !! تسمون الاستسلام لنزواتكم وأطماعكم واقعية ، وتدوسون القيم الإنسانية وتفلسفون خطاياكم ، وتزعمون أنها واقعية . . » .

ثم التفتت إليه قائلة : «دعنى وشأنى» .

لوح بسبابته مهدداً : «إننى أنذرك . . » .

- «أنا حرة...».

- «وسأسحقك كحشرة...».

- «ذاك عين العجز والبلاهة...».

- «أنت تمزقين التقاليد العريقة...».

- «حياتي الجديدة لا تخضع إلا لكلمات الله...».

- «اذهبي إلى الجحيم...».

- «آه لو علمت ما أسعده من نعيم روحى... آه...».

استدار إيلي، ومضى سريع الخطو، ناثراً الفكر، وانصبت
آلات التصوير فجأة على راشيل، فأشاحت بيدها غاضبة
مندهشة وتمتمت: «أنتم تسممون حياتي أيها الكذبة...».

ثم أشارت إلى سيارة أجرة وأسرعت إلى المستشفى العربى
بالقدس.



الفصل العشرون

عاد الدكتور وهيب من إجازته ، وكان مرهقًا شاحبًا ، كمرريض في طور النقاهة ، وكان الشرود والقلق باديين عليه ، وظن البعض أن هَجَرَ «رجاء» له هو السبب فيما يعانيه . وآخرون رجحوا أن هناك مأساة عائلية تعتصر قلبه ، خاصة بعد أن قضى إجازته في قريته المحتلة . وكلما سأله سائل ، قال في اقتضاب «لا شيء !» ورأت رجاء أن تجامله فقالت : «أسفة . . نحن قلقون من أجلك» .

- «لا مبرر للقلق . .» .

- «لم أقصد الإساءة إليك» .

- «أعرف يا رجاء . . هناك شيء أقوى من الحب» .

قالت في اضطراب : «أنا لم أعدك بشيء . . إن ما كان بيننا مجرد علاقة أخوية» .

همس في أسي : «هناك بديهيات لا يصح أن أتجاهلها . .

كانت هناك علاقة ما بيني وبينك . . أية علاقة لا يصح أن تلغى حرية أحد الطرفين . . .»

قالت : «يحزنني أن أتسبب في نكدك . . .»

- «المفروض أن نتقبل أموراً كثيرة تؤلمنا . . المقاومة فيها لا تجدى . . .»

- «كلماتك تشي بالأحزن . . .»

- «لأن حبك كانت شيئاً رئيسياً في حياتي . . .»

لم تستطع أن تجيب ، أما هو فقد هز رأسه قائلاً : «أنت صاحبة مبدأ . . ولهذا أعتز بك . . عندما تكون السيادة للمبادئ فإن كل أحزاننا ومآسى شعوبنا ستذوب ، ويولد عالم جديد . . المبادئ عندى تقدمية ورجعية . . وجهة نظر . . كنت أحتقر مبادئ الآخرين . هذا خطأ جسيم . . .»

أخذت تستمع إليه في اهتمام ، ثم سمعته يقول : «إن زواج فتاة مثلك من رجل مثلى يشير قلائل عدة . . لا أقول إنه مخالف للشرع الذى تؤمنين به فحسب ، بل يخلق جيلاً متمزقاً غريباً . . قد يأنس البعض لزواج كهذا . . ويتلذذون بما يصاحبه من صعوبات . . وطرائف . . المسلم يتزوج كناية . . المسلمة لا يتزوجها ماركسى لا دين له . . .»

قالت رجاء في اضطراب: «لا داعي لمثل هذا الكلام...» .
- «أنا أكره النفاق... لقد دارت أشياء كهذه في رأسك منذ
قدم عمر» .

واستأذن وهيب، وقصد عنبر المرضى، وجال بينهم
متفحصاً حالاتهم، مقررًا ما يحتاجون من علاج ورعاية، ثم
بحث عن عبد الوهاب وطلب منه أن يدبر له أمر مقابلة
الخليفة، قال عبد الوهاب: «لا مجال للسخریات مرة
أخرى» .

- «لم يخطر ببالي شيء كهذا...» .

- «لكن الحراسة مشددة...» .

- «نحن أطباء يا دكتور عبد الوهاب» .

هز عبد الوهاب رأسه موافقًا وقال: «من حسن الحظ أن
«إيلي» غير موجود... إنه شرس عنيد» .

جهز وهيب بعض الآلات الطبية، وصحب معه رجاء،
واستأذن من الضابط المسئول، وأخبره بأن فحصاً مهماً
سيُجرى للمريض، وأنه يريد غرفة المريض خالية من
الأشخاص... .

كان قلب وهيب يدق في عنف، لقد تعجب هو نفسه لهذا

الأمر الغريب، الخليفة مجرد إنسان بلا سلطة، يحاصره الجحود والعداء من كل جانب، وترصده الأجهزة الرهيبة الماكرة، وتكاد تعتصره.. لم هذا الاضطراب يا وهيب؟ ورجاء واقفة إلى جواره، وتمتم وهيب في خجل غير مألوف: «أيها الخليفة.. قرأت عنك كل شيء...».

قال الخليفة بتواضع وبساطة: «لكنني لست كل شيء...». نظر إليه وهيب في دهشة، يا لها من كلمة جامعة شاملة قالها الخليفة على الفور، دون أن يمعن فكراً، أو يحشد جهداً.

- «كيف؟».

- «المعرفة الرئيسية تُسقى من المصدر.. هناك الفيض والغيث العميم...».

- «وما هو المصدر يا أمير المؤمنين؟».

- «الله...».

- «لكنني عاجز عن اكتناه اللامتناه...».

- «في أشعته يا ولدي ترى الكون.. لم يصنع الكون نفسه... إنه إبداع الخالق.. وفي المخلوق ترى عظمة الخالق.. القصيدة الرائعة تنبئ عن شاعر عظيم.. ولم

الثرثرة، أقصد كلمات الله، سوف تأخذ بيدك إلى المصدر . . .»

وصمت وهيب برهة، بينما وقفت رجاء تشهد ما يجري في تمام يقظتها، وعاد وهيب يقول: «لم أكن أرى في الحياة سوى عذاب المساكين والتعساء، فقلت من أجل هؤلاء يجب أن تركز الجهود، وإسعاد البشر غاية . . .»

تتم الخليفة: «غاية؟ لا. بل وسيلة إلى الخير والعدل . . . الغاية هو الله . . . عملك عظيم لكن شابه اضطراب خفي . . .»

- «أسمع ذلك لأول مرة».

- «أتؤمن به؟».

قال وهيب دون تردد: «أجل . . .».

- «إذن فقد عمر قلبك بالأفراح، ووضعت قدمك على

أول الطريق . . . أن أوان السفر، فلتمض فيه حتى النهاية . . . وبالإخلاص ستري معالم الطريق واضحة مشرقة . . . تظللها المعرفة . . . ستجد علاج المساكين والتعساء . . . وأدب الحكم والحاكمين . . . والعلاقات الكثيرة التي تحكم الكون والحياة . . . إنكم لم تخلقوا عبثاً . . . ولن تتركوا سدى . . . اليقين طريق السعادة . . .»

قال وهيب: «وماذا نقول للناس؟».

- «ادعوهم بدعوة كل الأنبياء والرسل.. ألا يشركوا بالله شيئاً.. في التوحيد عزة وخلّاص من الوثنيات التي تضللّ عالمكم دون أن تشعروا.. هكذا تحدث القرآن..».

قالت رجاء في سعادة: «دعوة سهلة لا تكلف حاملها أية مشقة..».

ابتسم الخليفة قائلاً: «هذه الكلمات «لا إله إلا الله محمد رسول الله» لو قيلت بحق لارتج العالم، ولتغيرت المقاييس.. ولخرجت الثعابين من جحورها تنفث سموها دون رحمة.. ولعربدت قطعان الذئاب تنهش لحوم المؤمنين..».

في عالمكم آلهة كثيرة زائفة ترفض الإذعان للواحد الأحد.. يا أبنائي ما جئت لأسقط حكومة، أو أخوض معركة واحدة وأمضى.. ولكن جئت لأذكركم بكلمة التوحيد التي ترددونها في صلواتكم كل يوم دون استيعاب.. عندما تسير جموعكم على جناحي الشهادتين، فستنالون الحرية والنصر والعدل وسيكون الموت في سبيل الله نصراً، والحياة لدعوة الله نصراً.. والآن.. إلى عملكم يرحمكم الله..».

خرج وهيب، ينضح جبينه عرقاً. وأهدابه مخضلة بالدموع، وتبعته رجاء دامعة خافضة الرأس.

وهمس : «نحن معاً إلى الله . . .» .

- «هذا أسعد يوم في حياتي . . .» .

لم يكن التحول الذي اجتاح وهيب تحولاً مفاجئاً، فقد جاء نتيجة معاناة مجهدة، وتفكير طويل . . . وبعد أن خاض التجارب العديدة، ومأساة الأيام الحزينة تثقل قلبه وفكره، وتورثه الأرق والقلق العنيد . . .

وتتم وهيب وهو يجفف دموعه مرة ثانية : «هذا أسعد يوم في حياتي . . .» .

إن فكر الرجل لا يرفضه أي عقل سليم . . .

ولا تنفر منه أية فطرة سليمة . . .» .



الفصل الحادى والعشرون

«دافيد» شاب فى الثانية والعشرين من عمره، تلقى أصول السياسة فى أحضان حزب من الأحزاب الإسرائيلية المعروفة، التى لها سبعة مقاعد فى «الكنيست» وهو يحفظ الكثير من صفحات التوراة، ولا يكتفى بدولة إسرائيل الكبرى التى تمتد من النيل إلى الفرات، وتذهب جنوباً حتى تشمل أجزاء كبيرة من الجزيرة العربية . . لا . . أحلامه أكبر من ذلك بكثير، إن عقيدته هى أن تكون السيطرة الصهيونية على العالم كله، لقد قرأ بروتوكولات حكماء صهيون، وتأثر بالكثير منها، بعض أصدقائه يتهمونه بالمغالاة، والإغراق فى الأحلام، لكنه يسخر من ضعف عزيمتهم، وقصور آمالهم، ويؤكد لهم أن صهيون بسيطرتها على الاقتصاد فى كثير من دول العالم، تجعل لوكلائها نفوذاً كبيراً على الحكومات، وتوجيه سياساتها، ويردد أيضاً أن تغلغل الصهيونية والفكر الصهيونى فى أجهزة الإعلام الكبرى فى شتى البلاد، يشكل

تحديات كبرى للأعداء، ويتحكم في التأثير على الرأي العام تحكماً خطيراً، وموقفهم المتآزر حيال الانتحابات الأمريكية، واشتراك عدد من علمائهم في الأبحاث النووية وأبحاث الفضاء، يجعل من «البيت الأبيض» الأمريكي لعبة في أيديهم، ويزعم «دافيد» أنه ليس بين صهيون وتحقيق حلمها الكبير في سيادة العالم إلا خطوات قليلة.

كان «دافيد» يرقب الأحداث الجارية باهتمام بالغ، اشتغل في قلبه غيظ دفين، وهو يقرأ تطورات قصة الخليفة «المزعوم»، الذي أقام المدينة وأقعدها، وشغل الصحف ووكالات الأنباء، ونظراً لأن «دافيد» على صلة وطيدة «إيللي»، فقد علم منه الكثير خاصة قصة «راشيل» مع الخليفة، وكان يتحرق حنقاً، ويتمنى لو أمسك بمسدس وأفرغ رصاصاته في صدره... إنه يكره الرجل، ويكره مبادئه.

وقال دافيد لإيللي ذات مساء: «لو صح أن هذا الرجل هو عمر بن الخطاب فعلاً، لكانت فرصة ذهبية، لنتقم لأحزاننا في «خيبر»، ولبنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع، هؤلاء الذين أذلهم المسلمون في قديم الزمان...».

وعندما انتشرت أنباء طالبات المدرسة اللاتي ذهبن لاعتناق مبادئ الخليفة كاد دافيد يجن، وعلق قائلاً: «هؤلاء الفاسدات

المخدوعات ، يلوثن مجد صهيون ويسقطن بكرامتهن في الحضيض ، لا بد أن نسحقهن سحقاً . . » .

وكان دافيد يعتقد أن «راشيل» تلعب دوراً مهماً لحساب المخابرات العامة الصهيونية ، لكن خبر هؤلاء الفتيات أثار الشكوك في نفسه تجاهها ، وأدرك إلى ما يعتمل في نفس دافيد ، فقال : «أنت تأبى أن تصدقني يا دافيد . . راشيل غارقة حتى أذنيها في حب هذا الرجل الغامض . . لقد انحازت إلى جانبه تماماً . . » .

علق دافيد في ضيق : «حكومتنا تتصرف بغباء حيال هذه القضية ، يجب أن يدمروا هذا الرجل «الأكذوبة» ، قبل أن يشتد تهافت المجانين من الناس عليه . . فليقذفوا به إلى الجحيم . . أو يلصقوا به تهمة الانتماء لمنظمة «فتح» ، ثم يعدمونه رمياً بالرصاص في ميدان عام ، حتى يكون عبرة لغيره . . » .

قال إلى هامساً في سعادة : «هذا ما سوف يفعلونه . . لكنهم يريدون امتصاصه أولاً . . ما زالوا يعتقدون بأن وراءه مؤامرة خبيثة . . » .

قال دافيد متأثراً : «هل قرأت تصريحاته الصحفية الأخيرة؟ لقد أثارت بلبلة كبرى . . حتى المسيحيون واليهود أدارت

كلماته رؤوسهم . . إن كلمات الرجل وتأثيره البالغ على عقول العامة . . بل والخاصة . . من أخطر المؤامرات . . ماذا ينتظرون؟» .

وقضى «دافيد» أياماً مليئة بالضيق والأرق والسخط ، أسرته تشهد في قلق توتره وغضبه ، إدارة الجوازات والجنسية التي يعمل بها ضجت أروقتها بمناقشاته الحادة ، وثورته العارمة ، والحزب والنادي ودار العبادة ضجت هي الأخرى بتعليقاته الصاخبة . . كثير من أصدقائه بدءوا يميلون لرأيه تعصباً . .

وذات مساء ارتدى زيه الكامل ، واتخذ طريقه صوب بيت «راشيل» ، أغلقوا الباب في وجهه ، واعتذروا عن اللقاء ؛ لأن الوقت غير مناسب ، كانت راشيل تعرفه ، وتعرف صداقته «لإيلي» . . وفكرت . . لم لا تقابله؟ إنه ليس صحفياً ، قد يكون فتى طيباً يجذب نحو النور برغم ما تعرفه عنه من تطرف سياسي وتعصب ديني . . وقد يغير الله العواطف والأفكار في لحظة من لحظات التنوير الباهرة .

وصاحت من الداخل : «دعوه يدخل . . تفضل . . مرحباً بك يا دافيد . .» .

وعندما استقر بهما المقام في غرفة الاستقبال المتواضعة قال دافيد شاحباً متوتراً :

«أسف للإزعاج .. لكن .. هل صحيح ما نقرأه في الصحف ، ونسمعه في الشارع؟» .

- «وماذا سمعت؟» .

- «خدعتك كلماته ..» .

قالت شاردة: «للحقيقة قوة جذب خارقة ، لا تستطيع المعادن النقية أن تفلت منها ..» .

غمغم في رعب: «تدعين الحكمة؟» .

- «أصور ما حدث دون تنميق» .

هدر: «يا عار الجيل ..» .

تطلعت إليه ، كان منظره يدعو إلى الرثاء ، فقالت في صبر:

- «أعترف أنه كانت في أطماع «صبيانية» في البداية .. لكن عندما عاشرت الرجل ، وسمعت كلماته ، واستوعبتها ، تغير كل شيء .. لم أستسلم للهواجس ، وإنما ليبت نداء عقلي وقلبي .. لماذا يخدع الإنسان نفسه ، ويغل روحه وفكره بسلاسل الجمود؟

حرك رأسه في عصبية ، وأخذ يفرقع أصابعه متوترًا وقال: «إن كنت صادقة فيما تقولين ، فأنت سرطان يجب استئصاله ..» .

ابتسمت في هدوء لم يكن يتوقعه ، وهمست في ثقة : « لا يأخذ الروح إلا خالقها . . الموت لا يخلق نور الحقيقة . . مصباحها القدسي يضيء . . ويضيء . . لأنه خالدا لا يموت . . » .

قال في اشمزاز : « أنت بعد الموت جيفة قدرة ، عن أية حقيقة تتكلمين . . » .

قالت وقد شعرت بنذر ثورة في داخلها : « الحوار الأصيل ليس سبأ . . لن تنتصر بشتائمك » . أخذ العرق يتقاطر على جبينه الأشقر ، وبدت نظراته قلقة حائرة ، وظل فترة من الزمن صامتاً ، كان يحترق بالانفعالات الهادرة ، والعجز القاتل ، لم يكن موفقاً في حديثه ، ولم يتخذ طريق اللطف والمداهنة ، ما لهذا جاء . .

- « آسف يا راشيل . . إنك شديدة الإيمان بما تقولين ، وأنا أعذرك ، كنت وقحاً عديم اللياقة . . لكنني سعيد . . إن عنفي أظهر أشياء ذات قيمة . . » .

وهمست « راشيل » وقد زایلها غضبها المكتوب :

- « لقد خلقنا الله أحراراً ، وأنعم علينا بنعمة العقل ، وأمدنا بفطرة سليمة . . ولنا أن نختار . . أيضاً أنك أن يختار إنسان حر الطريق الذي يريد ؟ » .

نظر إلى وجهها الفاتن، وعينيها اللتين تشعان صدقًا وإصرارًا، والوقار الغريب الذي يواكب حركاتها وسكناتها، وقال متراجعًا:

- «حديث مثير، وجدير بالاستماع.. ماذا جرى لي؟ يا لي من أحقق، لقد كنت مخطئًا في ثورتى.. الحق أقول.. لكنني أعتقد أن الموضوع يحتاج إلى مزيد من التوضيح.. إنها ليست قضية سهلة يا راشيل..».

هزت رأسها موافقة:

- «أجل.. اتخاذ موقف عمل كبير.. الموقف هو الإنسان.. أتفهمني يا دافيد؟».

ابتسم، وقال في تأكيد:

- «أجل.. موقف حاسم.. لا بد..».

ثم عاد يقول وقد اتسعت ابتسامته:

- «وأظن أنك لن تمانعي في مقابلتي مرة ثانية.. فقد.. من يدري؟ فقد أقتنع وأمضى معك في نفس الطريق.. لكن تذكرني أنني صعب المراس، صلب عنيد..».

توهجت ملامحها بالسعادة، وصبغت وجهها حمرة سحرية، وبدا الخجل في حركاتها ونظراتها، ثم قالت: «ربما

أكون قليلة المعلومات كمبتدئة . . ومع ذلك فأنا على استعداد لمواصلة الحوار . . ويمكنك أن ترجع لحديث الخليفة المنشور أخيراً في إحدى الصحف . . لقد تطرق إلى الدين . . والسياسة . . والفن . . والفكر . . والعلم» إنه موجز، لكنه في الحقيقة يا دافيد معجز ويمكنني أيضاً أن أرتب لك مقابلة مع الخليفة نفسه . . إنه إنسان طيب بسيط . . «.

انتصبت أذناه المحققتان، وقال في اهتمام:

- «فكرة رائعة . . لكن يجب أن يسبقها لقاء خاص بيني وبينك حتى يكون لدىَّ حصيلة كافية عن الموضوع . . «.

ثم استطرد وهو يهم بالوقوف:

- «أتوافقين على أن نلتقي هناك في أطراف المدينة . . في الغرب . . هناك شجرة عتيقة . . على مقربة منها كازينو صغير . . «.

فكرت برهة ثم قالت:

- «ولم لا يأتي إيلي معك؟».

بهت، ثم قال في ضيق:

- «لا أظنه يأتي . . أنت تعرفين ثورته وعناده . . ثم إنني لا أريده . . «.

قالت: «وهو كذلك...».



كان يمشى في الشوارع مسرعاً دون هدف، لكأنما يجري وراءه وحش مفترس، وكلماتها تتابع في رأسه الملهب... هل هي يهودية بنت يهودى؟ مستحيل، لا بد أن فيها عرقاً غريباً أفسد طبيعتها، ولوث فكرها، وخالط روحها بأنفاس الشياطين... هي دسيسة... لا شك... أو مجنونة... يا للتلغ الذي أصاب كل شيء فيها... لكنها جميلة... أشعر أنها عرضة لقاطع طريق يريد أن يسببها منا... وظل دافيد يفكر... يفكر...

وبعد يومين من هذا اللقاء اهتزت أرجاء القدس لحادث وقع، حادث مثير مهول، وحملت الصحف على صدر صفحاتها عناوين ضخمة، لقد وجدت راشيل في مكان ناء بأطراف المدينة، ملقاة تحت شجرة عتيقة، والدماء تنزف منها، وقد تعرضت لطعنات في بطنها وصدرها ووجهها... لكنها لم تمت... كانت في غيبوبة تامة... واضطرب الناس حيال الحادث الغريب... قال قائل: «تلك بداية لما سيجره علينا الرجل الغريب من كوارث»، وقال ثان: «لقد ارتكبت الجريمة بيد عربية مسلمة؛ لأنهم يظنون أن راشيل اليهودية جاسوسة

تخدع الخليفة المزعوم، وتحصى عليه كلماته وحركاته وسكناته».

وقال ثالث:

- «إن إيلي - خطيبها المهزوم - قد أخذ بشاره. وانتقم لكبريائه وكرامته الجريحة».

وزعم أحد المواطنين، أنه رأى راشيل - قبيل الحادث - وبرفقتها فتى عربى، وأخذ يصف لونه، ويحدد طوله، والثياب التى كان يلبسها، بل ادعى أنه سمعها تقول: «إلى أين نسير؟ إننى خائفة» وخرجت مدرسة البنات التى عُقدت فيها ندوة «راشيل» منذ فترة، فى مظاهرة كبيرة، مطالبة بالبحث عن الجانى، والاهتمام بالتحقيق، حتى تتكشف الأمور الغامضة.

وقال معلق صحفى كبير: «إن المسئول الأول عن هذه الجريمة - كائناً من كان فاعلها - هو الخليفة المزعوم، فإذا ماتت راشيل فإن دمها معلق بعنقه» وكتب معلق آخر: «إن منظمة فتح وراء الحادث بكل تأكيد، وسينجلى الغموض إن عاجلاً أو آجلاً...». واعتقل رجال الأمن عدداً كبيراً من العرب من بينهم الدكتور عبد الوهاب والدكتور وهيب والمرضة «رجاء»، وعدداً من الفراشين والتومرجية».

واعتقلوني أنا الآخر . . ولم يحتجز للتحقيق من اليهود سوى إيلي . الذي أدخل سبيله على الفور ، بعد أن أكد لهم عدم صلته بالحادث ، وأثبت أنه كان في مكان معين للقيام بعملية خاصة كلفه بها رئيسه ، وقد أيد الشهود أقواله .

وقالت أم راشيل والدموع تغرق وجهها : «إذا ماتت ابنتي ، فإن موتها سيكون خسارة كبرى» .

وقال أبوها في حزن : «إذا حدث ذلك فعلاً ، فسأقاضى الحكومة ، بل سأقاضيه منذ الآن ؛ لأنها قصرت في حماية ابنتي . . إن راشيل أصبحت من ألمع نجوم المجتمع وأخطرها . . ومن الواجب حمايتها ، كما يُحمى موشيه ديان أو العجوز جولدا مائير . .» .



الفصل الثانى والعشرون

كان الحقد يأكل قلبه، ويهدر كبر كان هائج، ويوشك أن يُجنّ. . راشيل على قيد الحياة، أية نكسة أصابت آماله، وهدمت مخططاته؟ وفكّر فى أن يتسلل إليها داخل المستشفى كى يجهز عليها قبل أن تفيق من غيبوبتها، وأخذ يحوم متوتراً حول المبنى، لكن الحراس أبعدوه مراراً، وهددوه بالقبض عليه إن لم ينصرف. . إن أهل «راشيل» أنفسهم لا يستطيعون زيارتها، فكيف بالغرباء عنها؟ وعاد «دافيد» إلى بيته مضطرباً شاحباً، وبرقت فى ذهنه فكرة شريرة، وأخذ يجول بنظراته القلقة داخل الحجرة الضيقة، وتتم: «إنه المسئول الأول عن كل ما جرى، هكذا قالت بعض الصحف، وهو قول يتفق ووجهة نظرى، لو قضيت عليه لوضعت بذلك نهاية لتلك المأساة المضحكة. . عمر. .».

لم تخفت الضجة التى أثارها الحادث، وصرح عالم الدين الرسمى بالقدس: «إن هذه الفتن العشواء، والدماء التى تهدر

ظلمًا، إنما هي من باب الفتن التي لا يرضاها الله، ولا تقرها
تعاليم رسوله ﷺ، وإن وجود تلك الشخصية الغامضة «عمر»
سوف يجبر إلى بلاء مستطير، وإلى خلافات دينية، وتعصبات
حمقاء، لا يعلم إلا الله مداها، وألح إلى مواقفه السابقة،
وعدم انسياقه وراء عواطف الجماهير «البريئة»، ووقع على
البيان باسمه ..

ودخل الدكتور محمود العناني على الخليفة حزينًا مقطب
الجبين، ثم فحصه في ارتباك ظاهر، وتمتم بصوت خفيض:
«يا أمير المؤمنين، الأمور تسوء، اعتقلوا وهيب وعبد الوهاب
ورجاء، وعدداً آخر كبيراً من الناس بعد حادث «راشيل».

قال الخليفة في دهشة: «أى حادث؟» ..

- «محاولة اغتيال راشيل .. لقد مزق جسدها خنجر
مجنون ..».

بدا الأسف ممزوجاً بالغضب على وجهه الكريم وقال:

- «لا حول ولا قوة إلا بالله ..».

- «الأفق ينذر بالمخاطر ..».

- «يا لها من مسكينة .. أنا أعرف طعنات الخنجر .. فعلها
أبو لؤلؤة المجوسى بتحريض من اليهود والحاquدين .. كنت
أعاني آلاماً شديدة .. ترى ما حالها الآن؟».

- «لم تجتز مرحلة الخطر بعد . . .» .

وهتف الخليفة :

- «من فعلها يا محمود؟» .

- «مجهول . . .» .

- «إن ماتت فهي شهيدة» .

وقال محمود في تردد : «بعض الأصابع المشبوهة تشير

إليك في اتهام . . .»

هتف الخليفة : «أنا؟!»

- «هم يا أمير المؤمنين يبحثون عن كبش فداء لإسكات

الجماهير المحتجة الثائرة . . .» .

قال الخليفة في اطمئنان : «لن يسهل خداع الناس بعد ما

جرى من أحداث» .

- «هم يغلفون دعاواهم الباطلة في ثوب الحق . . .» .

وعاد الخليفة إلى صمته ، ثم أخذ يردد كلمات من

القرآن : ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ

يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ صدق

الله العظيم . . .

لشد ما تألم الخليفة لما أصاب «راشيل»، وأخذ يفكر فيمن يكون وراء ذلك الحادث، إن الشبهات التي كانت قائمة حول راشيل لم تتعدَّ مرحلة الشك، ولا تكفى لأن تدفع واحدًا من أتباعه لاغتيالها، ورجاله لن يتصرفوا على غير نصيحته، وقد أعلن الخليفة قبل ذلك موقفه بصراحة منها، والتزم بالثقة فيها، والأطمئنان إليها، وفتح قلبه للإيمانها، مؤمنًا أنها تسير من حسن إلى أحسن، وفي نبراتها الصدق والإخلاص، واندماجها في حياتها الجديدة، وقيامها بالدعوة علانية دون خوف، تثبت إخلاصها، كل ما تفعله راشيل لا يصعب فهمه بالنسبة لأي مراقب للأحداث، وتتم الخليفة: «لا أريد أن أجزم دون بينة، قلبي يحدثني أن هذا الفعل الشائن من صنع صهيوني حاقد... لا أعرف من، لكن الدلائل كلها تشير إلى أنه ليس من رجالنا من يجرؤ على ارتكاب تلك الحماقة... ما قمنا لنغتال الناس، ولكن لننشر الفضيلة، ونزرع الحب، ونقول كلمتنا... ونحن لا نتعجل الأمور... فعندما يحدث التغيير في عقول الناس وعواطفهم، هم بأنفسهم سيتأزرون في رفع أسس البناء العظيم الطاهر...».

وقال محمود: «العدو فاجر خبيث يا أمير المؤمنين...».

-«أنا أعرفهم، لكن الأمر خرج عن نطاق خبثهم... ولسوف تسوقهم الأحداث سوقاً... سيظهر القاتل إن عاجلاً

أو أجلاً . . الشباب هنا مصابون بمرض الشهرة وحب الظهور . . القاتل نفسه لا يود أن يبقى مجهولاً . . يريد أن يصبح بطلاً يتحدث عنه الصحف ، ويتردد اسمه في الأندية والحانات . . العالم مغرم بالفضائح . . والشعارات . . وهتك الأستار . . » .

وقدم أحد المحققين لأخذ أقوال الخليفة : « اسمك بالكامل . . بلذك . . عمرك . . عملك . . » .

- « لا أشياء مسبقة . . إننى أبدأ وكأنى لا أعرف شيئاً . . » .

قال الخليفة : « حسنًا . . عمر بن الخطاب . . بلدى القدس . . عمرى لا أعرف . . وعملى ماذا أقول؟ جمعت الأحطاب ، ورعيت الإبل والأغنام ، وقمت بالسفارة بين مكة والعالم البعيد . . وخدمت فى حكم الأمة عشر سنوات » .

تلكا المحقق ، وفكر بعض الوقت ، تناول القلم وأخذ يكتب وعاد يقول فى ضيق : « ما معلوماتك عن الحادث؟ »

- « المعلومات التى نشرتها الصحف . . » .

- « ألا تعرف القاتل؟ » .

- « لا أكنتم الشهادة . . الله يقول : ﴿ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] . . » .

وقال المحقق : «في آخر لقاء لك مع راشيل ، ألم تبدِ أمامك شيئاً من المخاوف؟» .

- «كانت شجاعة لا تهاب شيئاً . . في حياتها الأولى . .
والثانية . .» .

وسدد إليه المحقق نظرات ثاقبة وقال : «ألم يتوعدا أحد من رجالك؟» .

- «رجالى لا يعرفون الغدر ، ولا يؤمنون بالاغتيال
أو قتل الأبرياء . .» .

- «ربما ظن البعض أنها غير بريئة . .» .

قال الخليفة : «ربما . .» .

صاح المحقق : «إنك لا تقول شيئاً ذا قيمة» .

- «تصرفاتك كلها لا معنى لها . . أجئت تبحث عن القاتل

في المستشفى حيث يرقد رجل مريض؟» .

- «بل نبحث عن ثغرة . .» .

- «لكي تفلتوا منها ، وتلقوا المسئولية على أكتاف ضحية

برىء . .» .

- «أنت تُعرِّض بسدنة القانون . .» .

- «وأنا لا أؤمن بقانونكم . .» .

- «تلك جريمة يعاقب عليها القانون . .» .

تمدد الخليفة فوق سريره، ووضع راحتيه تحت رأسه وقال:
«انتهى كلامي . . فلتبحث لك عن تسليّة أخرى . .» .

- «بل ستتكلّم . .» .

- «لن يرغمني أحد . . هذا حقّي . .» .

- «ل سوف نعود إليك ثانية . .» .

- «الله أعلم . .» .

وخرج المحقق وعاد الدكتور محمود ليسأل الخليفة عما جرى، ولا يدرى أن كيف انفتح الباب فجأة، ووثب إلى الداخل رجل أشقر الشعر أزرق العينين . . إنه دافيد . . الجنون في عينيه، ووجهه محتقن يكاد يتفجر منه الدم، وخنجر لأمع في يده . . وقف الدكتور محمود مأخوذاً مشلول الفكر والحركة. ونظر الخليفة بعينين صارمتين لا تطرفان، وقال بصوت ممتلئ وقور وواثق: «نفس الخنجر! هيه . . لن تفعلها أيها النجس . .» .

كان دافيد قد أغلق الباب وراءه، وأحكم مزلاجيه، والحراس يدقونه بعنف من الخارج، وتقدم «دافيد» نحو سرير

الخليفة مكشراً عن أنيابه المتسخة من كثرة التدخين : «لقد انتهى عصرك أيها الخليفة . . ولن يعود التاريخ إلى الوراء . . هذا عصرنا . . نحن نمتلكه . . وسنسحق أى متسلل إلى وجودنا . .» .

قال الخليفة دون أن تزايله شجاعته وهدوؤه : «هناك أشياء لكل العصور . .

فلتتحول الرمال إلى صواريخ . .

ولتقلب الجياد إلى دبابات ومصفحات وطائرات . .

لكن قلب الإنسان سيعمل يعمر بالحب والحرية والإخاء والقيم الطاهرة . . وسيظل التوحيد راية الكرامة والتحرر من كل الأصنام والطواغيت . .

ذلك أريج العصور . . كل العصور .

الخناجر لا تقتل روح الحق في هذه الدنيا الكبيرة . .» .

انقض دافيد كنمر شرس ، ورفع يده بالخنجر ليهوى به ويغيبه في قلب الخليفة ، فاندفع الدكتور محمود . . لكن الخليفة كان أسبق منه . . وثب من سريره في خفة معجزة ، وأمسك بمعصم دافيد بيد حديدية . . أعجزته عن الحركة . . وهتف محمود : «اتركه لى يا أمير المؤمنين . . أنا كفيل بتأديبه . .» .

وجذبه محمود إلى الخلف بعد أن أسقط الخليفة الخنجر منه، ثم سدد إلى فكه الأسفل لكمة قوية، ثم ركله بركبته اليمنى ركلة قوية في بطنه، فترنح دافيد شاحباً مرتاعاً وسقط كالمغمى عليه وكان يئن أنيناً ضعيفاً، ويستغيث.. ومضى محمود إلى الباب، وفتح العرق الغزير يتقاطر على وجهه، وقال محمود وهو يلهث، في نبرات راجفة: «خذوا هذا الكلب إلى الشرطة.. لقد حاول قتل أمير المؤمنين..».

نفخ الحراس في صفاراتهم، ودقت الأجراس في الحجرات وفي أجهزة التليفون، واستدعيت قوات إضافية، وهرول موظفو المستشفى إلى مكان الحادث، بينما انكب الدكتور محمود على المجرم المغمى عليه، وأخذ يفحصه ويتسمع دقات قلبه، ثم حقنه بعقار الكورامين كي يفيق..

وتتم الخليفة بكلمات من كتاب الله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

فتح «دافيد» عينيه، ونظر فإذا بالحراس يحيطون به من كل جانب، وضابط صهيوني كبير يمسك بيده، ويطلب منه أن يرافقه إلى مقر «إدارة الأمن» وتلفت دافيد حواليه، أضواء تغشى العيون تنفشها آلات التصوير.. الخليفة جالس على

سريره يرقب المشهد صامتاً . . ومحمود بمعطفه الأبيض يبدو لدافيد من الخلف . . وأخذ دافيد يدق رأسه، ويشد شعره فى هستيرية وينشج ويقول: «تعاملوننى كمجرم . . إننى أودى واجباً مقدساً . . لماذا لا تتركونى . . الجريمة هنا (مشيراً إلى سرير الخليفة) . . لن تفهمونى إلا بعد فوات الأوان . . مستحيل أن أفشل مرتين . . العباقرة هكذا دائماً . . إننى أقولها بملء فمى أيها الإسرائيليون . . اسحقوا هذا الخطر قبل أن تتحول كلمات الخليفة المزعوم إلى حشود . . ورايات . . ونيران تحرقكم . . أمنكم ووجودكم . . وتبدد كفاح الأجيال الطويل . . وافعلوا بى الآن ما شئتم . . » .



ووجدت الصحف مادة جديدة للحديث، ولم يكن هناك مفر من توجيه تهمة «الشروع فى القتل» إلى دافيد، لكن نعمة واضحة جديدة، بدأت تظهر فى الأيام التالية، تحمل عواطف الشفقة والرأفة بالنسبة لدافيد، وقال أحد المعلقين الصهيونيين: «إن مأساة دافيد تحمل معنى خطيراً، تحمل معنى الرفض لدى أجيالنا الفتية لكل أنواع الخرافات والغيبيات التى انتهى عصرها منذ زمن بعيد، اللهم إلا فى بعض الدول المتأخرة كالبلاد الإسلامية والإفريقية . . إن المتهم يجب أن يُنظر إليه نظرة عاقلة، تفهم طبيعة المشكلة، وتنظر بعطف إلى تمرّد ذلك

الجيل وعنفه، ضد الحيل والسخافات الدينية التي تهدد أمننا ومستقبلنا، بعد أن ضحينا بالكثير من المال والدماء والجهود المادية والمعنوية، لبلوغ قمة النصر الخالد في حزيران عام ١٩٦٧ . . دافيد برى . . دافيد مخلص لعصره وشعبه . . دافيد رمز الرفض والتمرد . . وإن جانبه التوفيق في التعبير عن ثورة هذا الجيل وتطلعاته . . » .

لكن صحيفة أخرى تصدر في «تل أبيب» أفردت مقالة في صدر صفحتها الأولى وقالت دون توقيع: «دافيد مصاب بمرض عقلي، الملف الخاص به في الحزب وفي المدرسة وفي إدارة الجوازات . به مواقف وأحداث تشي بأعراض هذا المرض . . إن هناك دواعي إنسانية وطبية تحتم على سلطات الأمن أن تطلق سراحه، على الفور، أو تحيله إلى مصحة للأمراض النفسية . . » .

وقامت الصحيفة نفسها بعمل تحقيق صحفي شامل «ريپورتاج» عن ماضي دافيد، استضافت فيه أباه وأمه وإخوته وأخواته، وبعض أصدقائه، واستضافت أيضاً بعض الفتيات اللاتي لم يخجلن أن يصرحن بأن لهن علاقات عاطفية متنوعة مع دافيد . . وكل الأحاديث والتصريحات كانت منصبة على «المرض النفسي» الذي أصيب به وعانى منه دافيد منذ الصغر، بسبب الحروب والويلات التي تعرضت لها الحركة الصهيونية،

والمخاوف التي رزحت في رحابها . والغريب أن جريدة الحزب الذي يتسمى إليه «دافيد» قد اتخذت موقفًا آخر ، لقد أخذت تسرد وقائع اليهود في الجزيرة العربية أيام الرسول والخلفاء ، وصورت مواقف الغدر والخيانة ونقض العهود والنفاق ، صورتها على أنها بطولات وتضحيات باهرة ، تعتبر صفحة مشرقة في تاريخ الديانة اليهودية ، وأخذت تهاجم موقف عمر التاريخي ، وسياسة المسلمين الأوائل ، وتنذر الشعب بسوء المصير ، وتكرار أحداث «خيبر» وبنى «قريظة» وغيرهما ، إذا ما ترك الحبل على الغارب للفتنة الجديدة التي أخذت تنفث سموها . .

وفي مربع واضح نشرت الصحيفة : نبأ اختيار كبار المحامين وأشهرهم للدفاع عن الوطنى المخلص ، والعقائدى البطل ، دافيد حايم ، وقالت الصحيفة إنها وضعت تحت تصرف هؤلاء المحامين كل الوثائق والوقائع المهمة ، وأكدت أن القضية ليست «شروعاً في قتل» كما صورها المحققون المخدوعون ، ولكنها «دفاع عن النفس» ، وحماية للوطن ، ولا بد أن تكون المحاكمة تاريخية بكل معنى الكلمة ؛ حتى يفتضح الحقد الإسلامى العتيد - كما تزعم - ضد اليهودية واليهود . .

الأمر الذي لم يكن يتصوره أحد، هو أن «راشيل» قد أفاقت من غيبوبتها، وتخطت مرحلة الخطر بسلام، لكنها لم تدل بأية بيانات عن الشخص الذي اعتدى عليها. . كانت سلطات الأمن نائرة حائرة لرفضها إزاحة الستار عن القضية، ولم يكن الناس بأقل حيرة ودهشة، لكنها أكدت براءة وبراءة الدكتور عبد الوهاب والدكتور وهيب ورجاء. . ونفت كل الشائعات التي روجها المغرضون حول الخليفة، فلم تجد السلطات مناصاً من الإفراج عن جميع المتهمين، على أمل أن تعدل «راشيل» من موقفها وتعترف بما يحدث. .



وذات مساء قال الخليفة: «إننى سجين المستشفى. . ماذا يقصد الإسرائيليون بإبقائى هنا؟».

قال الدكتور وهيب: «ستبقى حتى يتخذوا بشأنك قراراً أخيراً. . وليس فى نيتهم خير. . هذا ظنى. .».

وقال الدكتور عبد الوهاب: «أعلم أن السجن خلوة وعبادة وتأمل - لكن لا بد أن تخرج للناس. .».

همست رجاء بصوت خفيض: «يجب أن نسبق تفكيرهم، لا أمل فى الصهيونيين. فلندبر خطة للهرب من هنا، قبل أن يحدث ما لا نحمد عقباه. .».

ورددت أنا على الفور: «هذا هو رأى ولا رأى غيره...» .
أما الإسرائيليون فكانوا يقولون: «إن حماية الخليفة أمانة
فى أعناقنا، وإن تيار العداء العنيف ضده -سواء من المسلمين
أو المسيحيين أو اليهود -يلزمنا بالحفاظ على حياة الرجل،
وليس هناك أأمن ولا أنظف من مستشفى القدس» .

وفى سريرها المحاصر قالت راشيل بصوت واهن
باك: «أريد أن أرى الخليفة... أخاف أن أموت دون أن
أراه...» .

وقال صحفى ماكر: «يالها من فكرة رائعة، أن يأتى موكب
الخليفة الكبير، تحت أضواء الكاميرات، حوله سياج من
الشرطة، ويدلف إلى المستشفى الإسرائيلى، ويلتقى بالفتاة
التي آمنت به، وأحبته... ياله من لقاء!! إنه مجال خصب
للصحافة والشعراء والروائيين والثروة الممتعة» .

لم تمنع السلطات فى تنفيذ رغبة «راشيل»، لكن الخليفة
ابتسم فى رقة وهدوء وقال: «شفاهها الله... هى شريفة
القصد... لكن الخبثاء يريدون أن يستغلوا الموقف، ويتسلون
ويعبثون... وتقدم للناس موائد من السخريات... الأرواح
أيها الرجال جنود مجندة، كما يقول الرسول ﷺ ما تعارف

منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف . . ولن تحول القيود
والسدود والحراب دون لقاء الأرواح . . وراشيل لديها من
الزاد ما يكفيها لخوض بحار الآلام والوحدة والعناء . . ولديها
من الماء العذب ما يروى ظمأها في السفر الطويل . .
انفضوا . . وسيروا إلى مقاصدكم . .»



الفصل الثالث والعشرون

اندمجت الحكمة «رجاء» فى المعانى الكبرى التى أفاضها عليهم أمير المؤمنين، خلقت خلقاً آخر، كانت تتكلم بحساب، وتتحرك عن وعى، وأهم شيء أنها كانت تفكر... أدركت أن الفكر روح الحياة، وما أكثر القضايا التى طرحتها كلمات أمير المؤمنين: الله... الإنسان... الإسلام... العلاقات بين الإنسان والإنسان وبين خالق الكون وإنسان الكون، الدين والعلم، وذلك العصر وما يتصارع فيه من قيم وأفكار وعواطف... لم يكن الأمر سهلاً، لأنه ليس انفعالاً عاطفياً عابراً بل اتخاذ موقف... موقف أساسى يتريب عليه... ومسئوليات... ووجدت «رجاء» نفسها تخوض تغييراً كبيراً فى نظرتها للأشياء... وفى ملبسها ومأكلها... ونومها ويقضتها... وعلاقتها بزميلاتها وزملائها... وأحوالها الأسرية... ثم الشيء المهم: وهو واجبها فى نشر ما تؤمن به من أفكار ومبادئ وخاصة بين بنات جنسها... كان لها نشاط

مستمر ، ودور كبير ، إن الصحافة لم تتخذ منها مادة للإثارة ، لكنها برغم الهدوء كان دورها أهم وأكبر من الدور الذي لعبته «راشيل» تلك التي أصبح اسمها على كل لسان . .

وتغيرت علاقتها بالدكتور «وهيب» ، كانت تلك العلاقة في الماضي ، همسات حلوة ، ونظرات والهة ، وأحاديث طويلة في التليفون ، وسهرات في السينما ، ونزهات في شتى الأماكن الجميلة ، وأحلام عن المستقبل والبيت السعيد ، والأبناء الذين طال انتظارهم في عالم الغيب ، وأثاث حجرة النوم والاستقبال والطعام ، وشهر العسل ، وآخر الموديلات في الثياب والشعر وأصباغ الزينة ، وكلمات قليلة يائسة عن الحرب وإسرائيل واللاجئين ، وعن الذين ماتوا ، والذين ينتظرون دورهم ، هكذا كانت . . وكان وهيب إذا حدثها عن كفاح المرأة في موكب الثورة البروليتارية ، والتصفيات الدموية للاستغلال العفن ، وبطولة الثوار في فيتنام ، والثورة الثقافية في الصين ، ورجال الصناعة والمال في أمريكا رائدة الاستعمار الجديد ، كان إذا كلمها عن ذلك ، بدا عليها شيء من الضيق والملل ، وهزت رأسها دون اهتمام ، وحاولت إعادته إلى حظيرة الكلمات الحلوة السهلة عن الحياة والحب والمستقبل والبيت السعيد . . أما اليوم فقد أصبحت رجاء شيئاً آخر تماماً . . الوجه يلفه حزن غامض وقور يلوح بالإصرار ، والملابس

محتشمة ضافية، والنظرات صافية واعية، والأحاديث منصبة على أمير المؤمنين وتوجيهاته، وهيب يشاركها في سعادة، حتى لكانهما يستذكران دروساً يتوقف عليها مستقبلهما وحياتهما كلها. ثم يرسمان كيف يسيران بين الناس بهذا الفكر الجديد!! ولم يطفى ذلك كله الحب الطاهر الذي يثير الدفء في الحنايا، ويضفي على دنياهما جمالاً رائعاً، وتمتت رجاء: «كلما تذكرت الماضي انتابني خجل شديد».

وابتسم وهيب قائلاً: «أنا على النقيض من ذلك تماماً، كان الماضي تجربة شائقة برغم ما يحفل به من انحرافات وتخططات».

- «وكيف؟».

- «لولا التجربة، وما أثارته في فكري من صراع حاد، ومقارنات لما استطعت أن أتخذ الموقف الجديد».

قالت رجاء: «ولمَ لم تكن أيامنا منذ البداية مثل الآن؟».

شرد وهيب قائلاً: «كان عمر بن الخطاب في الجاهلية عنيفاً عنيداً، وقيل إنه كان من أشد أعداء الرسول ﷺ قبل أن يسلم، بل إنه تصدى لبعض المسلمين الأوائل وأذاقهم العذاب والسخرية المرة، وخرج من هذه التجربة المثيرة مدعماً بالخبرة والحصانة والمعرفة. أصبح مثلاً يحتذى في الإيمان والإخلاص

والتفاني . . آه . . لقد ضرب أخته حتى أسال دمهها عندما
وجدها تقرأ سرّاً آيات من كتاب الله ، ثم تناول الصحيفة غضباً
وأخذ يقرأ الآيات ليرى ما فيها . . كانت الكلمات تبعث
الدهشة في فكره وتبث الأمان في قلبه . وتبعث القشعريرة في
جسده . . هزته من الأعماق . . استرخت عضلاته . . فانفجرت
أسارير وجهه . . ما هذا بقول بشر . . امتلأت عيناه بالدموع . .
ما هذا بقول بشر . . وطأطأ رأسه أسفاً . . وأسرع إلى الرسول
ﷺ . . وآمن . . وهو الذي كان يسل سيفه ليقتل محمداً ،
ويطمس النور الإلهي . . باسم النظام ، واتقاء للفتنة . . لكن
عمر تغير . . في لحظة خالدة . . وجد أن النظام هو سنة الله . .
وأن الفتنة أن يعبد غير الله . . إن التجربة العنيفة تخلق إنساناً
جديداً ، حيث لا تتكس به مطامع ، أو تهوى به ردة . . « .

كانت رجاء تستمع إليه في اهتمام ، وكان لحديثه رنة صدق ،
ومع ذلك فقد ظلت تحلم بالصورة المثالية . . صورة القلب
الصافي المفتوح لنور الحق ، والذي يتقبل الإيمان دون لاجأ أو
حمق . . وألمحت إلى هذا المعنى مع وهيب الذي قال : « ذلك
هو النبي . . تنسكب الحقيقة الإلهية في قلبه دون تردد ، فتورق
في روحه الفضائل ، ويشع من كلماته النور في كل اتجاه . . إنه
اختيار إلهي بحت . . سبحانه . . يصطفى من يشاء . . » .

وأخذنا يستعيدان ما يجري في هذه الأيام من أحداث، خاصة حادث راشيل، ومحاولة دافيد لقتل الخليفة، وموقف الدكتور محمود العناني الذي كان الحادث بالنسبة له الشرارة التي أشعلت وجدانه وعقله، فأمن... وابتسمت رجاء: «أليس عجيباً أن تكون يا وهيب أسبق من محمود في انصياحك للحق؟» ومراجعة كل شيء أكثر من مرة حتى الحالات المرضية الواضحة، لا يقر بتشخيصها إلا بعد فحوص عدة، مما كان يزعج فني ماكينة الأشعة، والعاملين في مختبرات الدم والإفرازات وحملة المجاهر... كان صبوراً دقيقاً، للدرجة تثير مما أضاع منه زيجته، وفوت عليه أكثر من فرصة لكنه لم يندم أبداً... حتى إبان الحرب كان في إمكانه أن يهرب قبل احتلال المدينة، لكنه كان مشغولاً بالبحث في حالة مرضية خاصة يريد أن يصل فيها إلى قرار، ولما اكتظت المستشفى بالجرحى، انهمك في العمل، ولم يفق إلا على القوات الصهيونية تحاصر المستشفى، وتدخل إليه..

وصمتت رجاء برهة، ثم قالت: «كان أبي رحمه الله ينصحنا دائماً بالآ نترك أرضنا. مهما كانت الظروف... هذه أرضنا وعليها نحيا، وعليها غوت... ولكن أبي ينسى أبداً تلك الرحلة المرهقة الحزينة في عام ١٩٤٨ وهو يحمل الزاد على كتفه، وطفلاً على كتفه الآخر... ويمضي مخترقاً حقول

الموت والرعب والقيظ . . تاركاً وراءه يافا وكان يقول : لو بقي شبر واحد من أرضنا لبقيت فيه . . من يدري . . البذرة الصغيرة قد تنشق عنها الأرض ، وتخرج شجرة ضخمة . . تسمو أغصانها إلى عنان السماء ، هكذا كان يقول . . المأساة كانت تلف حياتي . . لم أكن في الحقيقة - وأنا المسلمة - أفكر جدياً في الإسلام . . كنت أعرف أموراً سطحية تافهة عن النار والجنة وسيرة المحاربين العظماء . . كان تاريخ الرسول ﷺ يشبه في مخيلتي قصيدة جميلة ، ذات إيقاع موسيقى يستولى على الألباب ، لكنني لم أكن أفهم معنى تلك القصيدة ، ولا أتعلم أبعادها . . لم أتعلم في المدرسة عن ذلك شيئاً ذا قيمة . . ولم يتيسر لي كتاب أفهمه فهماً جيداً . . لكن كلمات الخليفة جاءت بسيطة مذهلة ، تفيض بالروعة والتأثير . . وضعت يدي على مواطن الحق والخير ومنبع الجمال الخالد . . لم أستطع أبداً من قبل أن أفهم الإسلام على أيدي المحترفين . . أو لعلني في أغلب الأحيان لم أكن لأحاول ذلك . . » .

وأخذ وهيب يفكر بصوت مسموع : « كثرة المعلومات أو قلتها ليست العامل الحاسم ، كان أبو سفيان في جاهليته ملماً بكثير من الحكمة والعلم في عصره ، وكان بلال بسيطاً . . عبداً مسكيناً يعمل بيديه ، لا يكاد يجد وقتاً للراحة . . وآمن بلال ،

وكفر أبو سفيان . . آه . . عندما آمنت «بدكتاتورية» الطبقة،
 ووحدة الطبقة العاملة في العالم، كنت أقول مع القائلين:
 «نحن لا نعادى الطبقة العاملة فى الدولة الصهيونية، فهم
 ضحايا مظلومون أمثالنا، وهم جزء من الكل . . من عمال
 العالم الكادحين . . وضحك أبى العجوز وقال لى آنذاك: أيها
 المخدوع . . إن الطبقة العاملة فى دولة صهيون هى التى تحمل
 السلاح، وتحتل الجولان وسيناء، وهى التى أقامت إسرائيل
 منذ البداية، وزرعت فى أرضنا التشرد والعذاب والذل . .
 الكفر ملة واحدة، هناك عمال مؤمنون وعمال مارقون . . أما
 تقسيماتك يا ولدى فهى مستعارة . . وهى أبعد ما تكون عن
 الحق . . والفضيلة يا وهيب لا تنبع من طبقة، والحق لا يكون
 فى جانب طبقة بعينها . . إنها صفات فردية . . قد تعمر قلب
 عامل أو ملك أو جندى . . وقد تترعرع تحت سقف كوخ
 فقير، أو تزدهر فى جنبات قصر منيف . . العدل لا يطلعه فقر
 أو غنى، ولا عبد أو سيد، العدل ينبع من قلب المؤمن . . هكذا
 كان يقول أبى . . وكنت أسخر منه بينى وبين نفسى، وأرميه
 بالجمود والرجعية . . آه . . لكى يوجد المجتمع السعيد . .
 يجب أن يوجد الفرد الصالح والحاكم العادل . . وليس لطبقة
 بعينها، أو فرد بذاته قداسة من أى نوع . . القداسة للمبدأ . .
 للأصول الشريفة التى يجب أن يسير عليها الناس . .»

ثم تنهد وهيب في ارتياح: «أمنت بالله...».



وبقى حادث راشيل لغزاً، لم يستطع أحد أن يفض مغاليقه إلا الجاني والمجنى عليها، لكن «دافيد» لا يتكلم، و«راشيل» تأبى أن تدلى بالحقيقة، وأخذ رجال الخليفة يقومون بالتحريات اللازمة، لكي يفهموا أبعاد الحادث، وانطلقوا في كل اتجاه يحاولون جمع الأخبار والهمسات والتخمينات، و«إيلي» هو الآخر كاد يجن، فهو - برغم حنقه على تصرفات راشيل واحتقاره لأفكارها - كان يشتعل غيظاً، كان يريد أن يعرف الجاني ليتقم منه، وآمن «إيلي» في النهاية، بأن الفاعل لا بد أن يكون من أنصار الخليفة، بل إن الخليفة نفسه ربما يكون هو المدبر للحادث، للتخلص من الفتاة التي تحوم حولها الشبهات، والتي يظن المسلمون أنها دسيمة إسرائيلية مكشوفة لا تحتاج إلى كبير ذكاء، ثم إن راشيل وما كتب عنها في الصحف، خاصة علاقتها العاطفية، والأكاذيب التي دستها سلطات الأمن، كل هذا - حسبما يعتقد إيلي - قد أغضب الخليفة على راشيل، وإن تظاهر بالرضى عنها، وما يؤكد هذا الظن لدى إيلي، أن راشيل ما زالت معتصمة بالصمت، ويعتقد إيلي أن السبب في ذلك هو أنها لا تريد أن تشي برفاقها من أتباع الخليفة؛ لأن في ذلك خيبة أمل كبرى لها، وانھیاراً

لمخططاتها، وستلحق بها سخرية الناس . . إن راشيل تعتبر الأمر مسألة كرامة وكبرياء، ثم إنها بعد لم تزل تحب الرجل الغامض، وتذوب شوقاً إليه . . » .

غير أن الدكتور محمود العناني كان له رأى آخر غريب غاية الغرابة، إنه يذكر أن «دافيد» أثناء محاولته الاعتداء على الخليفة كان يردد في هوس: «مستحيل أن أفشل مرتين» . .

والدكتور محمود لم يتذكر هذه الجملة إلا بعد مرور فترة من الوقت، وأخذ يحاول أن يفهم مرماتها دون جدوى، وظن في البداية أن دافيد ربما فكر في اغتيال الخليفة مرة قبل ذلك وفشل . . وفجأة برقت في ذهنه فكرة غريبة: «لماذا لا يكون «دافيد» هو الفاعل في حادث «راشيل» أيضاً؟» .

لكن الأمل أخذ يخبو، عندما تذكر عدم اعتراف «راشيل» دون سبب وجيه، لو كان الفاعل في حادث راشيل هو «دافيد» المتعصب الحاقد، فلماذا تستر عليه؟!

وقرر «محمود» أن يتوجه إلى المستشفى الإسرائيلي بالقدس الجديدة برغم الحراسة المشددة، عن طريق أحد أصدقائه القدامى، لم يكن الأمر سهلاً، فقد بذل فيه جهداً خارقاً، واستطاع أن يصل إليها . . وحينما انفرد بها، متظاهراً بفحصها لإبداء رأيه، قال هامساً: «لست أدري لماذا تسترين عليه؟» .

قالت بهذوء وبصوت هامس أيضاً: «من؟» .

سدد إليها نظرات ثابتة لا ترتجف وقال: «دافيد».

شحب وجهها، ودق قلبها في عنف، وابتلت أهدابها بالدموع، وهمت بالجلوس فلم تستطع، وهتفت بصوت واهن: «كيف عرفت؟».

- «هذا لا يهم... إن تترك عليه أمر محير... لأنه صديق إيلي؟».

قالت وقد تماكنت أعصابها: «وهل الجميع يعرفون؟ والخليفة؟».

- «يجب أن توضحي الأمر وإلا وقعنا في بلبلة أشد... تكلمي... الوقت لا يسمح لنا بالثرثرة».

أمسكت بمعطفه الأبيض متشبثة وقالت: «لقد خفت على الخليفة أن يصيبه مكروه».

- «كيف؟».

- «إذا أدين دافيد، فسيثور حزه ثورة لا يعلم إلا الله مداها، وقد يتصدى له «إيلي» وينتقم منه، وستثور فتنة في المجتمع الإسرائيلي العفن... قد تجر إلى كوارث... ولن يدفع ثمنها سوى الخليفة... أنا أعرفهم، وابتلعت ريقها، واستراحت لحظات، ثم عادت تقول: «عدني ألا تكشف النقاب عن الأمر... من أجل الخليفة... بل من أجلنا جميعاً...».

- «لكن ترك دافيد سيؤدي إلى نكبات أخرى . . لقد كاد يفتك بالخليفة كما تعلمين . .» .

- «لقد نجا الخليفة والحمد لله . . انتظر . . ليس هذا أوان الكشف عن كل ما جرى . .» .

وطأ طأ محمود رأسه في حيرة وانصرف . .

لكنه كان يشعر بسعادة قصوى . .

وبعد يومين أفرج عن «دافيد» بالضمان المالي . .



الفصل الرابع والعشرون

وقرر الجميع من أتباع الخليفة أن يدبروا خطة لتحريره ، عبر الحدود إلى أقرب دولة عربية ، فهناك -حسبما يظنون- سيجد الأمن والحرية ، والمناخ الصالح لعمله ، وسينجو من الخبث الصهيونى ، ويفلت من إसार السجن الذى يحصرونه فيه ، واعترض الخليفة فى البداية وقال : «يا أبنائى . . لا يهم شخصى . . أن أسجن أو أموت هذا شئء يحدث كثيراً لحملة المبادئ. المهم أن تنطلق الكلمات . . أن تعيش فى فكر الناس ووجدانهم . . وأن يحملوها للآخرين . . فلم يستطع طاغية على حقب التاريخ أن يسجن الكلمات ، لأنها كالأرواح . . تجوب الآفاق . . لا تتزف أو تُعذب أو تدفن فى التراب . . حياتها أبدية . . تظل تدور وتدور . . ليس المهم هو عمر . . المهم هو الكلمات التى حملها عمر ، وأنتم تعرفونها . . هاجر محمد ونحن معه إلى «يثرب» . . لكن كلماته كانت تتردد فى أرجاء مكة ، وتفتح الأبواب والنوافذ ، وينطلق صدهاء فى

الوديان . . وعلى قمم الجبال . . وتلاحق الناس في يقظتهم
ومنامهم . . يتهامسون بها أحياناً، أو يصيحون بها في قوة . .
لأنها كلمات صادقة قوية . . لا زيف فيها ولا رياء . . ولأنها
كلمات الله العظيم . . حسناً . . فلنسافر إلى أرض أخرى
ولندع الكلمات هنا تفعل فعلها . . الكلمات كالكاثر الحى قد
تنمو وتفرخ وتزحم الطريق . . عيشوا أنتم بين
ظهرانيهم . . لكن حذار . . أنا لا أعنى الكلمات المجردة . .
الكلمات وحدها لا تجدى كثيراً . . يجب أن يحملها فكر
طاهر، وقلب مؤمن لا يرهب إلا الله، يجب أن تترجم إلى
سلوك . . إلى حياة مميزة . . هذا أفعل وأقوى . . أعرف أن
عصركم عصر القوة . . لكن ثقوا يا أبنائي أن قلب المؤمن،
وفكره الحر الشجاع، وروحه الطاهرة . . ستمدكم بقوة لا
مثيل لها . . القوة ليست الحديد والنار وحدهما . . إنهما
مظهران ماديان . . هناك القوة الروحية . . ستحتاجون الحديد
والنار - لا شك - كما فعل نبيكم صلوات الله عليه . . القوة
المادية وحدها هراء وإلى زوال . . وقد يملكها الكثيرون . .
لست حالماً ولا واهماً . . ولا أستلهم كلمات من شطحات
الخيال والهذيان . . بل فى يدى الدليل . . هكذا انتصر
نبيكم . . اذكروا «بدر» و«أحد» و«الخنق» و«حنين» . . كان
لكل معركة منها سمة خاصة بها . . وانتصرنا . . لا تقولوا كما

يقول المغرورون: هذا عصر مضى . . ذاك قول باطل . . حيث توجد المبادئ متمثلة في رجال مؤمنين لا يخافون إلا الله وحده . . يوجد النصر، وتشرق شمس العدل والكرامة . . ويسعد الناس . . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله . . آه . . مات حبيبي رسول الله والمسلمون يعدون بالألوف . . انظروا اليوم إلى أنحاء الدنيا . . الملايين تعبد الله على أنوار دعوته . . ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].



بينما كنا ندبر الهرب، بلغنا أن «دافيد» اللعين، بعد أن أفرج عنه، أخذ يجمع حوله بعض شباب الحزب المتعصبين، ويدبر المؤامرات للقضاء على «جماعة أنصار عمر»، وعلى كل من يدعو لمبادئه، والحق أن هذا الأمر قد سبب لنا إزعاجاً شديداً، فنحن لم نكمل استعدادنا بعد، وليس من صالحنا التصدي له على الفور، والسكوت هو الآخر معناه الاستسلام والإضرار بنا، ولم يكن هناك من وسيلة سوى الاتصال «براشيل» وإقناعها بأن تعلن ما خفي، وتشرح حادث عدوان «دافيد» الفاجر عليها . . لعلهم يقبضون عليه، ويعرقلون

مخططة ولو إلى حين . . لكن راشيل أصرت على موقفها السابق ، إذ كانت مقتنعة اقتناعاً قوياً بأن اعترافها سيجر إلى مشاكل تهددنا وتهدد الخليفة ، وكنا نود أن نخبرها بأنه لا خوف على الخليفة لأنه سيفادر القدس قريباً ، غير أن بعض الإخوة أصر على أن يظل «الهرب» سرّاً مطوياً لا يطلع عليه أحد . . حتى راشيل لا داعى لإخبارها به ، برغم الثقة فيها . . ودهمتنا الأحداث بطريقة مؤلمة قاسية . .

لقد وضع «مجهول» المتفجرات فى منزل الدكتور عبد الوهاب السعداوى . . وانفجرت العبوة الناسفة قبيل الفجر ذات ليلة سوداء غاب قمرها . . ودمرت المنزل الصغير الذى يعيش فيه عبد الوهاب وأمه وأخوه الصغير . . ومات الثلاثة . .

مات عبد الوهاب الحبيب . .

كان جثمانه يرقد مسجى فى نفس المستشفى العربى ، تغطيه الأقمشة البيضاء ذات البقع الحمراء . : خمد الجسد الطاهر . . مات وكل شىء فى المدينة الحزينة يمضى فى طريقه : السيارات . . المصفحات . . نقط الحراسة . . الباعة . . الصحف . . أغاني المذياع . . الطائرات التى تهدر فى الأفق السجين . .

أصابنا الذهول . . كنا نتحرك فى المستشفى وفى الشوارع

كأشباح هائمة . . ولما مات عبد الوهاب دمعت عينا الخليفة . .
وانسكبت الدموع على لحيته البيضاء . . وأخذ يقول بصوت
يخالطه البكاء : «إن العين لتدمع . . وإن القلب ليحزن . . وإن
لفراقه لمحزونون . على مثله تبكى البواكى . .» .

وصرح الدكتور محمود محتقن العينين : «بدأ عهد
التضحيات . . مرحباً بالموت . .» .

رد عليه وهيب محتداً : «بل عهد الثأر . . ولكم في
القصاص حياة . .» .

وقالت رجاء والدموع تغرق عينيها : «دعوني أذهب للقاتل
وأحرقه وأحرق بيته . .» .

وقال الخليفة في هدوء عجيب بعد أن جفف دموعه :
«طوبى للغرباء . . طوبى للشهداء . . كل يوم يسقط في
أرضكم شهداء يا أبناء الأرض الشهيدة . . لم يسقط عبد
الوهاب وحده . . من مات دون عرضه فهو شهيد . ومن مات
في معركة الجهاد الأسمى شهيد . . ومن مات دفاعاً عن نفسه
وماله فهو شهيد . . والقصاص يكون من أجل أولئك الملايين
المعذبين المضرجين في دمائهم وتعاستهم وذلمهم . . هم إخوة
عبد الوهاب . .» .



ومر الحادث دون أن تشير إليه الصحف بكلمة واحدة،
وقيد الحادث ضد «مجهول» وتهامس رجال الأمن
الصهيونيون قائلين: «إن الحادث لا بد أن يكون من صنع
إحدى الجبهات الفدائية اليسارية.. إذ المعروف أن عبد
الوهاب كان يميني النزعة.. بهذا تشهد التقارير التي لدينا عن
حياته وآرائه السياسية وتدينه.. أو لعل الجبهات الفدائية
اليمنية قد خالجتها الشكوك في سلوك عبد الوهاب، وظنوه
ضالعا مع راشيل في عمالة إسرائيلية خفية..» كانوا
يضحكون وهم يكتبون هذه التفسيرات الغريبة.. مما يبعث
على الشك، من يدري فقد يكون لهم يد في الحادث، أو ربما
كانوا يعرفونه، ويتظاهرون بالغباء حتى يضرب أنصار الخليفة
في الصميم..

لكننا فوجئنا بعناوين بارزة في الصحف تقول: «القبض
على «دافيد حاييم بنحاس» مرة أخرى».

«راشيل تروي قصة غريبة»، ودافيد ينكر الواقعة..
ويتهمها بالجنون..».

الحق يقال، إن الخبر أثار ضجة كبرى، فقد أصيب «إيلي»
باليأس، وحاول إطلاق الرصاص على صديقه «دافيد» وهو
بين يدي الشرطة، لكنه لم يستطع أن يحقق هدفه، وثارت

أسرة «راشيل» واتهمت الحزب الدينى الذى ينتمى إليه دافيد بتدبير مؤامرة القضاء على حياة راشيل ومستقبلها بعد أن أصبحت أشهر من بنت ديان وبنت «بن جوريون» . . وحمى الجدل بين مجتمع القدس القديمة والجديدة . .

وبات ضرورياً أن نتصرف بسرعة .

كانت الخطة التى رسمها المرحوم عبد الوهاب السعداوى تركز فى وضع بعض العقاقير المنومة شديدة المفعول فى شراب يتناوله الحراس الصهيونيون، أما الخطوة التالية فهى وضع الخليفة فى سيارة إسعاف تحمل الشارة الإسرائيلية، وكان بالمستشفى واحد من هذا النوع، ولا بد أن يقود السيارة أحد أصحاب المخلصين على أن يكون مجيداً للغة العبرية، ويرتدى سترة إسرائيلية، ولا بد ألا يستعمل السلاح إلا فى حالة الضرورة القصوى ويحذر بالغ . . ولا بد أن تتخذ الاحتياطات بحيث يمكن نقل الخليفة إلى سيارة أخرى عند الضرورة . . والحقيقة أن الفدائيين من «فتح» قد قدموا لنا مساعدات كبيرة فى هذا المجال . .

وتمت الخطة بنجاح لم نكن نتوقعه، ولم يصادفنى موقف حرج يضطرنا لاستعمال السلاح، وحينما بلغنا منطقة أمنة تكتنفها التلال والوديان تركنا السيارة تحت شجيرات برية

حجبتها . . وانطلقنا عبر الشعاب . والفجر لم يكن قد أرسل
تباشيره بعد . . وبعد مسيرة طويلة جلسنا في مكان آمن
لنستريح وتناول لقيمات قليلة، وجرات من الماء . .

كان الخليفة يقول : «يا أبنائي . . لن يصلح حال هذه الأمة
إلا بما صلح به أولها . . لا تظنوا أنكم قد خلفتم المتاعب
وراءكم في أرضكم المحتلة التي يعربد فيها أبناء صهيون . .
لا . . المتاعب في كل أرض . .

-العالم كله يرزح تحت كابوس رهيب من القلق والتمزق
والحيرة . . حتى المتصرون» .

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

وكان اليهود يريدون القضاء علينا بأسلوب خبيث . .
كالجائع النهم الذي يأكل في تلذذ وبطء ليبلغ أقصى درجات
الإمتاع . . كانوا يزوقون خبيثهم . . لكن من أدراكم . . قد
تعانون نوعاً آخر من العناء والشقاء في الأرض الجديدة . . يا
أبنائي . . ليست أولها . . من قديم وهي تتردد في أرجاء
الدنيا . . آه . . كتبت إلى والينا «أبو موسى الأشعري» ذات يوم
أقول له : « . . . إن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماهى
في الباطل ، ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس . . » .

أجل يا أبنائي . . الحق قديم . . والعناء قديم . . لأن العناء
خدين الحق ، وما انتصرت الفضائل بغير العناء . .

ليس هذا نهاية المطاف . . فالطريق طويل . . طول الدنيا . .
من قديم بدأ . . والقافلة تواصل السفر . . برغم الجوع والألم
والظما . . والتضحيات . . ما قدره الله يكون . . كل شيء
بقضاء وقدر . . ألا إن قدر الله هو نظامه وهو عدل . . » .



وأخذتنا سنة من النوم . . لم نستطع أن نغالب النعاس . .
وبعد فترة لا أدري أطالت أم قصرت تيقظت . . وأخذت
أتلفت يمينه ويسرة . . وصرخت في رعب : « الخليفة !! أين
الخليفة ؟ ! »

وأفاق الإخوة من نومهم مذعورين دهشين . . الدكتور
محمود والدكتور وهيب ورجاء والسائق وغيرهم من
الرجال . . وأخذنا نجرى هنا وهناك .

نصعد القمم . . وننحدر على السفوح . . ونجوب الوديان
. . وننادى وننادى بأصوات لهفى يخالطها البكاء :

« يا أمير المؤمنين . . يا خليفة رسول الله يا عمر بن
الخطاب . . أين أنت ؟ ! . . »

ولم يعد إلينا سوى الصدى الحزين ، ممتزجاً بخفقات
الأنين . . وطلع الفجر ساكناً كثيباً على قافلتنا الضائعة
المتعبة . . وحلقت فوقنا طائرات «هليكوبتر» إسرائيلية كسرب
من الغربان السوداء . .

كنا نرمقها في غير اكتراث . .

ثم هبطت إلى جوارنا ، وحاصرنا الصهيونيون
بسلاحهم . . ثم ساقونا إلى السجن . .

كنا نسير وكأننا في حلم لا نكاد نصدق ما يجري . . وكتبت
الصحف الصهيونية في لهجة تنم عن الغيظ والحقن : «هروب
الجاسوس العربي الغامض» .

«راشيل تصاب بنكسة وانهيأ عصبى عقب سماعها النبأ» .

«العرب يقومون بمظاهرات في المدينة القديمة . .» .

«التحقيق يجري مع مدبري الحادث . .» .

«أخبار غير مؤكدة تقول إن «الخليفة المزعوم» شوهد داخل
أحد المعسكرات الفدائية في الضفة الشرقية . .» .

وعدنا نحن إلى السجن من جديد . . لنقاسي ألواناً بشعة
من التعذيب . . من أجل أن نرشد عن المكان الذي قصده أمير
المؤمنين . . .

قلت للمحققين: «إنه في مكان.. إنه ليس مجرد جسد.. هو فكر وعقيدة.. إنه إيمان.. مستحيل أن تقبضوا عليه.. إن أردتم فاقبضوا على كل رجل ذى قلب مؤمن.. هم؟ هو.. وهو هم.. أقسم لا أعرف مكاناً بعينه قد ذهب إليه.. لو علمت أن «شخصه» في أى مكان على ظهر الأرض لطرت إليه.. إنه باعث روحى وحياتى.. وملهم فكرى.. كلماته وجودى.. لكنى واثق أنه سيعود للظهور..»

هتف المحققون فى لهفة: «متى؟»

قلت: «هكذا أخبرنى سرّاً.. كان يحببنى.. متى يأتى؟ أين؟ لا أدرى.. ليتنى أعرف.. لكننى سأعيش على أمل اللقاء به.. وسأجده.. إنه لا يكذب.. إنه شعاع من نور النبوة.. أتقتلون الشعاع؟ مستحيل.. وعندما يعود ثانية فلن أنام.. سأظل يقظاً أحرسه بروحى وعينى ودمى.. وأنشبت بأطراف ثيابه الطاهرة.. وأمضى خلفه فى أى درب يسير.. يا شعب الغيلان والأبالسة.. ألم أقل لكم إنه وجودى؟ ما أكثر الذين يموتون.. لكنهم أحياء..»





قال ضابط الأمن الكبير لرفاقه: «راشيل جرثومة فساد في مجتمعنا الإسرائيلي، وستسبب لنا كثيراً من المتاعب... لا خلاص منها إلا بالموت... أجل... الموت!! لماذا تنظرون إلى هكذا؟ هذا هو رأي المؤسسة العسكرية الحاكمة... ليس لدينا وقت للفتن والخرافات... هؤلاء اليهود الشرقيون حقراء... استمعوا إليّ جيداً لن يثير الأمر أدنى دهشة أو ريبة... فهي مصابة بجروح خطيرة... لقد انتكست حالتها وماتت... هذا ما سنشيعه، وسيصدقنا الجميع... ولقد اتخذنا التدابير اللازمة لذلك... انتهى الاجتماع».

وفي مساء اليوم الذي دُفنت فيه «راشيل»، وجد «إيلي» متحرراً في حجرة نومه، كما صدر أمر بالإفراج عن «دافيد» لعدم وجود شهود عيان للحادث، ولأن «راشيل» كانت في حالة صحية لا تسمح بالثقة في أقوالها كما أثبت تقرير الأطباء المختصين...

أما أنا ورجاء ووهيب ومحمود العناني، فقد حُكم علينا في إحدى المحاكم العسكرية، بالسجن خمس سنوات؛

لاشتراكنا - كما يزعمون - في شبكة جاسوسية خطيرة ،
يتزعمها شيخ فدائي يغلب على الظن أنه من الزعماء
الروحانيين . ومن الغريب أن تصدر عشرات الكتب والقصائد
والمرحيات عن راشيل ، وجميع الكتاب يؤكدون أنها كانت
فتاة إسرائيل المخلصة المضحية ، التي حمت شعبها من أخطار
خارجية مؤكدة ، لم يثن الأوان بعد لإزاحة الستار عن الخفايا
المتعلقة بهذه القضية ، كما أطلق اسمها على إحدى
المستعمرات المزعم إنشاؤها في هضبة «الجولان» !!

وأخذ أبوها وأمها والمتصلون بهما ينسجون من محض
الخيال حكايات كثيرة ينسبوننها إلى راشيل كذباً ، ويقبضون
الثمن ، والدموع «الفضية» تتأرجح في عيونهم . . هذا
بالإضافة إلى المكافأة التي صرفتها الحكومة لأسرتها . .



وفي ذلك السجن الرهيب ، كنت أحمل معولى في تراخٍ
وأقول : «يا وهيب . . إن خمس سنوات هنا أمر بشع . .» .

شرد وهيب إلى بعيد وقال : «لكن الخليفة قال : إن
الكلمات لا يسجنها أحد . . إنها تهوم الآن في كل مكان . .
توقظ النيام . . وتشعل الثورة في قلوب المظلومين . . وتزعج
حملة السياط والبنادق . . وما النصر إلا من عند الله . .» .

وتناهى إلى أسماعهما صوت صياد سمك عربى أسروه

ذات مساء ، وألقوا به في السجن ، كان يغنى موالاً شعبياً ،
يردده في انفعال وحنين :

حب الحسن والحسين

في مهجتي ساكن

وحب طه النبي

جواً الحشا ساكن

يا ما نفسي أزورك يا نبي

واقعد حذاك ساكن

واشوف حمام الحمى

حول المقام ساكن

يا ليلي .. يا عيني ..

وتتم الدكتور محمود العناني : « آه .. يولد الفجر من بين
برائن الظلام .. ويقلب المؤمن أفراح أبدية .. برغم
العذاب .. يا روعة السفر » .

نجيب الكيلاني

تمت في إمارة دبي - الخليج العربي

في : أول ربيع الآخر ١٣٩٠ هـ

٥ يونيو ١٩٧٠ م

الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٣
الفصل الأول	٥
الفصل الثاني	١٧
الفصل الثالث	٣٠
الفصل الرابع	٤٠
الفصل الخامس	٤٦
الفصل السادس	٥٦
الفصل السابع	٦٩
الفصل الثامن	٨١
الفصل التاسع	٩١
الفصل العاشر	١٠٢
الفصل الحادى عشر	١١٣
الفصل الثانى عشر	١٣٠
الفصل الثالث عشر	١٤٢

١٥٤	الفصل الرابع عشر
١٦٤	الفصل الخامس عشر
١٧٤	الفصل السادس عشر
١٨٥	الفصل السابع عشر
١٩٣	الفصل الثامن عشر
٢٠٣	الفصل التاسع عشر
٢٠٩	الفصل العشرون
٢١٦	الفصل الحادي والعشرون
٢٢٧	الفصل الثاني والعشرون
٢٤٢	الفصل الثالث والعشرون
٢٥٣	الفصل الرابع والعشرون
٢٦٥	الخاتمة



روايات د نجيب الكيلاني

من إصداراتنا



حارة اليهود



حكاية جاد الله



دار الصحوة
ALSAHOH

الطبعة والتوزيع
+ 20242106767
Email: daralsahol@yahoo.fr

دار ال
تليفون
il.com

عالم المعرفة
الجزائر

الهاتف: 021.20.56.62
حي باحة 02 فيلا 07 تماريس - لخمديّة - الجزائر
Email: alemelmaarifa@yahoo.fr